لَفْحُ الْغُرْبَةِ

لَفْحُ الْغُرْبَة

عَبدُ اللّه دعيس

رواية

*

دار الجندي للنشر والتوزيع

القدس

٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

*

الطبعة الأولى (٢٠١٥)

*

لوحة الغلاف للفنانة المقدسية: جيهان أبو رميلة

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

لَفْحُ الْغُرْبَة

عَبدُ اللّه دعيس

روايَة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرواية من وحي الغربة التي عصفت ببلدة بيت حنينا، وجدار الفصل الذي مزقها وشتت القلة الباقية من أهلها.

تنويه

الشخصيات والأحداث في هذه الرواية خيالية،

وأي تشابه بينها وبين أشخاص حقيقيين، أو أحداث

حقيقية هو محض صدفة.

إهداء

إلى كل من ترك الحياة الرغيدة في الغربة وعاد ليرابط في وطنه، ورضي بشظف العيش. إلى كل أمٍ اختارت أن تربي أبناءها في وطنها، فكانت لهم الأب والأم معا.

إلى أمي.

(١)

ما إن تتحرك السيارة تاركة ميدان "ورا الجامع" خلفها، حتى تحلّق "تينة" بخيالها بعيدا. تحاول أن تحدد ماهية المكان، أن تفهم المعادلة الصعبة، والجغرافية المستحيلة التي أحالت رحلتها إلى مسيرة عذاب يومية. تنظر خلفها لترى عليّة الحاجة خضرة تختفي من أمام ناظريها عندما يغير جدار الفصل اتجاهه فجأة ليحجب الرؤية. تهتز السيارة المتهالكة لثوان معدودة قبل أن تطل العمارات المرتفعة في بيت حنينا الجديدة من خلف الجدار.

القرية النائية والمدينة القريبة! هل يحجزهما جدار الزمن؟ أم يحجزهما جدار الفصل الذي صنعه العدو؟ هل نحن بنينا الجدار بأيدينا؟ هل هدمنا السلاسل الحجرية، ووضعناها أقواس نصر في طريق الغزاة؟

كيف ستستطيع تينة أن تبرر هذه الرحلة المضنية من مكان إلى عين المكان، من مدينة إلى ذات المدينة، ومن قرية إلى ذات القرية! ربما ستبذل جهدا أشد من ذلك الجهد الذي تبذله لتبرير اسمها الغريب! هل يحتاج الاسم إلى تبرير؟

هنا في هذه العوالم المختلفة، حيث يتداخل الزمان والمكان، وينتفي

حساب التاريخ، كل شيء بحاجة إلى توضيح. لا شيءَ ثابت سوى تلك العليّة التي بدأ الزمن يغيّبها كلما ضاق المكان! سوى الحاجة خضرة التي تناطح المائة عام وتحمل في صدرها حكايات قرن من الزمان، وذلك العجوز أبو رزق الذي لا يبارح ميدان "ورا الجامع" يغمر صوته المكان، وما من مجيب له سوى سليمان الأهوج في دكانه العتيق. ماذا يدور في الدكان؟ وماذا تخفي أحاديث أبي رزق خلف تلك الجدران القديمة؟

كما الزمان والمكان تتداخل الفضيلة والخيانة في هذا المكان؛ الأهوج والشيخ تاهت فيما بينهما حدود الفضيلة والخيانة. أما "أرود"، ذلك الكائن البشري الذي انقلب ليمشي على كفيه! متحديا قانون الطبيعة، فهو عنوان لملحمة عنوانها الحيرة. كل هذه المفارقات لا توجد إلا في مكان واحد؛ بيت حنينا[1]!

تترك تينة مدينة رام الله وراءها، لتعود وتمر من بيت حنينا مرة اخرى، بعد أن تنتظر وتكابد الجموع على حاجز قلنديا. يتراءى لها بيت حامد، تتذكر أيام الطفولة وحباً قديما تجمّد خلف جدار الفصل الشرقي! تشق طريقها في مدينة القدس، ينجذب قلبها نحو سورها العتيق قبل أن تطل قبتها الذهبية. كم تشبه هذه القبة الشامخة تلك العلية! تعود تينة إلى معضلة ازدواج المكان والزمان، قبل أن تنشغل في علاج المرضى في مستشفى المقاصد.

تعاود تينة رحلتها المضنية في المساء، يبادرها جدار الفصل الغربي.

---

[1]- بلدة تقع شمالي مدينة القدس، قطّعها جدار الفصل العنصري إلى عدة أجزاء فأصبح التواصل بين أطرافها يتم عبر رحلة طويلة تمر بمدينة رام الله!

خلف ذاك الجدار يقبع بيت رائد، يتراءى لها من بعيد حينما تصعد إلى حي العروض. لم تبادل رائدا حبا أبدا، كان حبه من طرف واحد، فهي لم تهب قلبها إلا لحامد. عاشقان يفصلهما جداران! ربما سيكون عند الحاجة خضرة جوابا لهذه المسألة! تتوجه تينة إلى العلية، هناك تكنُّ الحاجة في إحدى الزوايا تجتر بقايا الزمن الغابر وتنتظر!

رحلة تينة المضنية إلى المستشفى، ورحلة حامد إلى المحكمة، ورحلة رائد إلى السجن، ورحلتهم جميعا في قلب الحياة، تعريف غريب لقرية لفحها هجير الغربة.

- كيف أصبحت هذه القرية خاوية؟ وأين ذهب أبناؤها؟ ومن سنّ سنة الهجرة منها حتى خوت على عروشها؟

تساءلت تينة.

أما الحاجة خضرة فقد غمرت تجاعيد وجهها بيديها حرجا من الإجابة، وقالت:

- إنّه الصوص! إنّه الصوص!

وعاد بها الزمان، قرنا كاملا، هناك حيث الصوص يخطو خطواته الأولى خارج الدار!

(٢)

باب الدار

كان يوما شتويا عاديا في الحارة الفوقا. توقف المطر الخفيف الذي داعب ذرات التراب طوال الليل، فانتشت الأرض برائحة محببة، بعثت الفرح في قلوب أهالي البلدة، فالأرض بالنسبة لهم هي الحياة، والمطر هو روحها. انتفضت القرية منبعثة من سباتها، وبدأ أبناؤها ينسلون من بيوتهم مبكرين.

خرج (الصوص)، أو هكذا كان يدعى، فكل نفس في هذه البلدة، وفي تلك الحقبة الزمنية، كان لها لقب تُعرف به بين الناس، وربما تُنادى به أحيانا، فكثير من الناس لم يكونوا يُعرَفون إلا بألقابهم.

لم يكن الصوص شابا يافعا، فقد انطوى من عمره سنوات، فأصبح في العقد الرابع من عمره، وتزوج من النساء اثنتين، قضت إحداهما قبل أن يتزوج الأخرى. وعرف بالصوص رغم أنه كان كامل البنية، لكن الألقاب ليس بالضرورة تنبئ عن الملقب، بل هي صفة تلازمة منذ الصغر. ولكل لقب قصة، لكن أحدا لا يتذكر قصة لقب الصوص هذا، فكثير هم الذين لقبوا بالصوص في البلدة، حتى لم يعد أحد يحكي

قصة اللقب أو يختلق قصة له.

خرج الصوص مبكرا، كعادته في كل يوم، لكن خطواته الأولى خارج عتبة "الدار" ذاك الصباح كانت قلقة مترددة. والدار هي أكبر بيت في الحارة، وأمامها ساحة صغيرة كانت تعقد فيها لقاءات الحارة الفوقا وأعراسهم، وكان أهالي القرية، ببساطتهم المعهودة، يسمونها: (باب الدار). وتعلو الدار عليّة حديثة البناء، تطلّ على القرية بهامة مرفوعة، وكأنها تحرسها.

تلفت يمينا ويسارا، فلم يرَ أحدا جالسا على الحجارة الملساء التي تحيط بالمكان. ففي أيام الشتاء تبادر العجائز بالجلوس مع أول خيط من خيوط الشمس، يتسلل من بين البيوت الشرقية. ظن أنه الوحيد الذي بكّر بالخروج، لكنه رأى أبا صابر يقود حماره مسرعا يقصد جهة الجنوب، فقد نوى بيع الحمار في المدينة، فاليوم هو الجمعة الذي تنعقد فيه سوق الدواب. ألقى الصوص التحية على جاره:

- السلام عليكم.

لم يأبه أبو صابر بالسلام ولكنه أجاب:

- أنا ذاهب لبيع الحمار في سوق الجمعة.

- على بركة الله.

وخرجت الحاجة خديجة من باب بيتها، وقد سبقها سرب من الدجاج مسرعا في نفس الاتجاه، وكأن الدجاجات قد حفظت درسها، وعلمت وجهتها، فهي تعلم أين تجد المخلفات التي تشبع جوعها في كل صباح، وتعلم بالضبط أين تعود في المساء، وتميز صوت صاحبتها عندما

تناديها: (تيعا تيعا سي سي سي.) وإذا تطفلت إحدى دجاجات الجيران على علفهن، وقدمت مترددة، سارعت الحاجة خديجة لتطردها: (كش غريبة كش غريبة.) فتعلم الدجاجة أنها المقصودة فتنطلق مبتعدة.

الحاجة خديجة بادرت الصوص بطرح تحية الصباح.

- الله يصبحك بالخير.

- يصبّحك ويربّحك.

أجاب الصوص، وقد بدت علامات القلق في صوته.

توجه الصوص جنوبا، وسار سيرا وئيدا مارا بحاكورة (الدبوس)[٢]، حيث كانت العديد من السيدات قد بكرن إلى الطوابين العديدة في الحاكورة، وبدأت رائحة الخبز تعطر المكان. وما كاد يخطو بضع خطوات حتى تلقّى رغيفا، فهذه عادة أهل البلدة، لا تصل (الباطية)[٣] إلى البيت قبل أن توزع عددا من الأرغفة على المارة. ومع كل رغيف يتم تبادل أطراف الحديث.

- إلى أين؟

تساءلت أمّ عطيّة وهي تناوله الرغيف.

لم يشأ الصوص الإجابة، لكنه اضطر للقول:

- "واصل مشوار وراجع."

وليس من عادة أهل البلدة الإلحاح بالأسئلة. فقد اكتفت السيدة

٢ مكان محاذيا للطريق توجد فيه العديد من الطوابين.
٣ وعاء يحفظ فيه الخبز.

بالإجابة وعادت مسرعة لقلع الرغيف التالي.

تردد الصوص قليلا، ونظر من بعيد إلى باب الدار. نظر نظرة المشفق الحنون، نظرة طير انتزع من عشه أو ولد حُرِم من أمّه، فقد ترك في الدار أهله وذكريات حياته كلها. هناك ترقد زوجته جليلة – ورغم أنه يكبرها بعقدين من الزمان إلا أنه أحبها حبا شديدا... فهي التي ملأت الفراغ بعد وفاة زوجته الأولى التي تركت له ابنة في الثانية عشرة من عمرها وصبيا في العاشرة عند وفاتها.

تريث الصوص عاما قبل أن يخطب جليلة، ويبادلها بابنته نعيمة، فقد كان زواج الشغار رائجا في تلك الحقبة. قاد ابنته اليافعة إلى قرية أخرى، تبعد عن قريته، وزوجها لمزارع اسمه مصطفى، مقابل الزواج من أخته جليلة. أما الصبي خضر، فقد عاش في كنف أبيه وزوجته الشابة. لم يلبث الصوص أن رزق ببنت جديدة، ومن شدة حبه لولده خضر، أسماها خضرة. كان بكاء خضرة آخر ما سمعه ذاك الصباح وهو يخطو خارج الدار. لن ينسى هذا الصوت حتى ولو نسي ملامح وجه الرضيعة!

خطا الصوص خطوة أخرى، وعادت به الذكريات إلى ما هو أبعد من ذلك. فقد نشأ في ذلك البيت مع أمه وأبيه وأخته وإخوانه الخمسة. لقد امتلكت العائلة كثيرا من الأراضي الزراعية، وعمل الجميع بجهد طوال العام حتى يحصلوا على قوتهم، ثم شق كل واحد من أخوته طريقه في الحياة، وانتقل إلى بيت جديد، أما هو فقد بقي في بيت العائلة، بصحبة أكبر إخوته، الذي أصبح مختارا خلفا لأبيه، وبنى علية شامخة لتكون مضافة تليق به.

ربما كان الصوص أكثر إخوته حظوة عند أبيه، فهو الوحيد الذي حظي بقسط من التعليم، في وقت كاد التعليم يكون معدوما، خاصة في القرى. فقد انتظم في كتّاب القرية وتلقى علوم العربية والقرآن والحساب، ثم انتقل إلى رحاب المسجد الأقصى في القدس الشريف ليتلقى العلم على عدد من الشيوخ، ويدرس الفقه الشافعي.

لم يكن الصوص في ذلك اليوم يرتدي الجبة والعمامة التي كان يلبسها علماء الدين في ذلك الوقت، فهو لم يلبسها إلا في أيام الجمع أو عند توجهه إلى المدينة؛ لأنه يعمل في الزراعة، وهذا اللباس لا يناسب الأعمال الزراعية. وعلى الرغم من ذلك فقد عرف في قريته بالشيخ.

لم يكن الصوص ميسور الحال، حاله حال معظم القرويين في أواخر العهد العثماني في فلسطين، فعلى الرغم من وفرة المحاصيل الزراعية، إلا أن ثمنها كان زهيدا، وكانت الضرائب تثقل كاهل الفلاحين، حتى أصبح الحصول على الحياة الكريمة صعب المنال.

ولم يكن الصوص في سن الجندية، وإلا لكان قد سيق كغيره إلى أصقاع الدنيا ليقاتل في صفوف جيوش الدولة العليّة، فقد غادر كثير من شباب القرية مع العساكر ولم يعد جلهم، وكان ممن غادر زوج ابنته الذي أُخِذ بعد زواجه بفترة قصيرة.

قطع تفكيره أبو محمود المعروف (بالعفن) والذي كان راكبا بغلته ومتوجها جنوبا إلى المدينة: - سمعت يا شيخ.

- خير إن شاء الله!

- سعد الجابر!

- ما له؟

- غادر البلد، والله العالم إن كان سيرجع أم لا.

- أخذه العسكر؟

- لا، سافر إلى بلاد الغربة.

- اكتفى الصوص بقول، لا حول ولا قوة إلا بالله، رافضا عرضا من (العفن) أن يردفه على بغلته.

توقف الصوص قليلا بمحاذاة مقبرة القرية، وقرأ الفاتحة قبل أن يخطو مسرعا تاركا تردده خلفه، وكذلك ذكرياته، فقد قرر أن يمضي في طريقه ويدع الأفكار التي قد تثنيه عن عزمه، فقد طفح الكيل وأصبحت الحياة صعبة جدا.

مضى الصوص حاثا الخُطا نحو القدس، مارا بواد المغارة بمحاذاة قرية لفتا، ولم يتوقف إلا عندما مر بـ(العفن) جالسا على صخرة في الطريق، وقد ربط بغلته جانبا وأخرج رغيفا من خَرْجه وبدأ بتناول فطوره.

- تفضل على ما قسم الله.

نادى (العفن) الصوص لمشاركته طعامه.

- يُكثّر خيرك، معي رغيفي، لكنني لا أرغب بالزاد.

- الله يجعله خير إن شاء الله.

تابع الصوص سيره حتى وصل عند دكان يوسف، على مشارف

(الكبانية)[٤]، ورأى اليهودي العجوز واقفا أمام دكانه منتظرا زبائنه العرب الذين يبكرون إلى المدينة.

- تفضل، تفضل.

صاح يوسف اليهودي موجها خطابه إلى الصوص.

لكن الصوص أهمل الصوت وتابع سيره دون أن يأبه له، وقال في نفسه: لماذا يأتي هؤلاء اليهود من بلادهم إلى هنا؟ فأصحاب البلاد أنفسهم يتركونها ويهاجرون طلبا للرزق! ما الذي يأتي بهم؟ وكيف تسمح لهم حكومة السلطان والصدر الأعظم بالمكوث في هذه البلاد المقدسة؟

تلفت صاحبنا الصوص يمنة ويسرة قبل أن يتابع سيره، ولكن ليس باتجاه الشرق هذه المرة، فهو لن يذهب للصلاة في المسجد الأقصى كعادته كل يوم جمعة، لكنه توجه غربا باتجاه خط سكة الحديد الذي يربط بين القدس ويافا.

وصل الصوص إلى محطة القطار وقد نوى أن يستقلّ (البابور)[٥] إلى يافا. لم يسبق له أن قام بهذه الرحلة من قبل، ولم يركب القطار قط. كان كثيرا ما يرى القطار يمر مسرعا عندما كان يحرث أو يحصد أراضيه شرقي قريته، بيت حنينا، لكنه لم يره متوقفا إلا عندما حضر في الجمعة الماضية، ووصل إلى المحطة، لكن شجاعته خانته، ووقف ينظر إلى القطار حين أعلن مغادرته بصوت بوقه والدخان الذي ملأ الفضاء.

٤ التسمية الدارجة للمستعمرات الصهيونية قديما.
٥ القطار

راقبه حتى خفت الصوت وغاب القطار عن أنظاره ولم يبق إلا خطٌ من الدخان خلفه، كسحابة صيف ما لبثت أن تلاشت.

تقدم الصوص بخطاً متئدة مترددا، وقد عقد العزم أن يركب في هذه المرة، وأن يمضي دون خوف أو وجل. وعندها سمع صوتا يناديه من خلفه:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أجاب الصوص.

- أنا صالح الحمد، من البيرة.

- والنِّعم منك. أنا الشيخ أمين من بيت حنينا.

- أين وجهتك؟

تردد الصوص بالإجابة، فتابع صالح قائلا:

- أنا مسافر إلى بلاد أمريكا إن شاء الله.

- وأنا أيضا.

- لقد أصبحت الحياة صعبة في هذه البلاد، ويقولون أن أمريكا بلاد خير.

- هكذا سمعت، فكثير من أبناء بلدتنا غادروا إلى الولايات المتحدة.

- وهل عاد أحد؟

- نعم، رجع أحدهم بعد غيبة سنتين. رجع خواجا، واشترى نصف

أراضي البلدة.

- الله يوفقنا ونرجع مثله.

أحس الصوص بالراحة النفسية عندما وجد رفيقا له، وتشجع على مواصلة الرحلة.

استقل الصوص وصالح القطار، واستمتعا بالمشاهد الخلابة على جانبي الطريق، حيث مر القطار بأراضي القرى العديدة على جانبي السكة. رأيا الفلاحين يجرون بغالهم ذهابا وإيابا، يشقون الأرض لتخرج كنوزها المدفونة، والنساء تحمل جرار الماء؛ يصعدن إلى عين ماء أو يهبطن إلى واد جارٍ. وبعد قليل تلاشت الجبال، وبدأت السهول بالظهور وقد كستها خضرة مبكرة في ذاك العام الذي بدأ فيه موسم المطر مبكرا. ومر الرجلان ببيارات البرتقال وقد تثاقلت أشجارها بأحمالها، وفاح أريجها ليغمر المكان، قبل أن يحط بهما الترحال في مدينة يافا.

هبط الرجلان من القطار في يافا التي كانت تعج بالحركة، فأصوات التجار تملأ المكان، وأرتال الصيادين يلقون بأحمالهم من السمك، وتحمل وجوههم تعب الليل واستبشارهم بالصباح، والعساكر التركية تجوب المكان وتحرس الميناء الذي رست فيه العديد من السفن الضخمة المحملة بجميع أنواع البضائع.

توجه الرجلان إلى الميناء، حيث رست سفينة قادمة من بلاد أوروبا، ونزل منها المئات من الركاب التي كانت سحنهم تنبئ أنهم يهود، فهم لا يشبهون الخواجات الآخرين رغم أن عيونهم زرقاء، فسوالفهم تتدلى ملتوية على جوانب وجوههم التي يبدو عليها الإرهاق والشحوب.

تساءل الصوص عن سبب مجيئهم بهذه الأعداد الكبيرة إلى فلسطين، فأجابه صالح:

– هؤلاء بنوا (كوبانية) لهم بالقرب من يافا، ويأتون للعمل بالزراعة وتربية البقر.

– الناس يأتون إلى بلدنا ونحن نغادرها! ما رأيك؟ هل نعود أدراجنا؟

– توكل على الله يا رجل، إن شاء الله نرجع سالمين غانمين بعد عدد من السنين.

لم يكن الصعود إلى السفينة بالأمر الهيّن، فالصوص وصاحبه صالح لا يملكان أجرة السفر. توجه الرجلان، مع جمع من المهاجرين إلى أحد السماسرة في الميناء، والذي يعمل على تهريب الركاب إلى السفن المغادرة. اتفق السمسار مع مجموعة من عمال الفحم في السفينة أن يدخل الرجال إليها دون علم القبطان، على أن يبقوا في القبو السفلي للسفينة، حيث يزود العمال محرك السفينة البخارية بالفحم الحجري، وعليهم أن يعملوا بدلا منهم طوال الرحلة، ولا يخرجوا للسطح أبدا لأنه – حسب ما قال العمال – إذا علم القبطان بوجودهم فسيجعلهم طعاما لأسماك البحر!

وافق الرجال على هذه الشروط وصعدوا خلسة إلى السفينة؛ لتبدأ الرحلة صباح اليوم التالي.

غابت السفينة في عرض البحر، وتلاشت بعيدا خلف الأمواج، وقد ضمت في أحشائها الصوص ورفيقه صالح.

حاول الصوص كثيرا أثناء سفره في القطار ألّا يفكر بعائلته حتى لا يثنيه

ذلك عن السفر، ويدفعه للعودة، وهو الآن يقينا يفكر بهم، ولكن لا عودة من البحر، فقد فات الأوان وعليه أن يكمل رحلته.

***

كان اليوم السبت عصرا، وقد سطعت الشمس الشتوية الدافئة على باب الدار، وجلست العجائز على الحجارة الملساء التي تحيط بالمكان، وكانت العجائز تنتقل من حجر إلى آخر، يلحقن الشمس حيث تدور، ويتبادلن أطراف الحديث. أما أبو ملحان الهرم، فكان ملتفا في فروته، وهو بدوره يلحق الشمس ويحاول الاستماع لحديث العجائز، فيسمع شيئا وتفوته أشياء، ويعلق أحيانا على حديثهن.

صبحة: أعلمتن الخبر؟

حبسة: خير إن شاء الله.

صبحة: الصوص.

حسنية: ما له الصوص أكله الضبع؟

صبحة: لا ، سافر وذهب إلى بلاد الغربة.

زهرة: أيّ صوص؟ صوصنا أم صوص الحارة التحتا؟

صبحة: الشيخ.

حسنية: يا حسرتي، وعلى من ترك زوجته وعياله؟

في هذه اللحظة صدح صوت الحاجة خديجة تنادي دجاجاتها: (تيعا تيعا سي سي سي) وتطرد دجاجات جاراتها عن علفها: "كش غريبة

برّا غريبة"

زهرة: زوجته غريبة، ستبقى هنا أم سترجع إلى بلدها؟

حبسة: لماذا ترجع لبلدها لا سمح الله، هي في بيتها ومع أولادها.

حسنية: تقصدين ابنتها، الولد ابن المرحومة حمدية.

أبو ملحان: أخذوا الشيخ على جيش العثملي مثل ما أخذوا "جوز الحولا"؟

لم يأبه أحد بكلام الخرف، فقد غاب (جوز الحولا) عندما كانت العجائز في ريعان شبابهن ولم يعد أبدا.

تابعت العجائز حديثهن حتى توارت الشمس خلف الأفق، وعادت الصبايا بعد (تزبيل)[٦] الطوابين، وعاد الحراثون إلى بيوتهم، وتوجه رجال البلدة إلى المضافة ليكملوا الحديث عن غياب الصوص.

في ذلك اليوم علم جميع أهالي البلدة بقصة غياب الصوص، وتحدثوا بها لأسابيع قبل أن تتلاشى القصة من أحاديث القرية، فقد غاب بعده كثير من الرجال، واختفوا في عرض البحر. أما أبو ملحان فما زال يسأل: رجع جوز الحولا؟

أما جليلة فقد عاشت حياة صعبة بعد خروج زوجها، فخضر كان يافعا لا يستطيع القيام بأعمال الحقل. فقد بذل كل جهده، لكنه لم يستطع أن يفلح أراضي والده، بل اكتفى بمساعدة أعمامه مقابل قوت العائلة. وكانت جليلة مضطرة لسماع الحاجة خديجة في كل مساء وهي تطرد

٦ إضافة القش إلى الطابون حتى يبقى متقدا.

الدجاجات المتطفلة وتقول: (كش غريبة كش غريبة) والعجائز ينظرن باتجاه باب الدار! وأصبح أبو ملحان يسأل: رجع جوز الحولا؟ رجع الصوص؟ ولا يسمع الإجابة.

ومرت الأيام، وتغيرت الأحوال، وتبدلت من حال إلى حال، فقد رحل الجيش العثماني ودخلت جيوش الإنجليز، وسيطرت على البلاد بأكملها، لكن باب الدار بقي كما هو بحجارته وعجائزه، وما زال الهرم أبو ملحان يسأل عن جوز الحولا وعن الصوص.

وفي يوم من الأيام عاد .... عاد صالح رفيق الصوص، وأتى إلى بلدة صاحبه سائلا عن مضافة الحارة الفوقا. وقد صادف في ذلك المساء وجود (سحجة)في باب الدار. استقبله الرجال بالترحيب، وأرخت العجائز آذانها وأطرقن سمعا. أخبرهم صالح أنه صاحب الصوص ورفيقه في السفر، فسأله أبو ملحان: رجع الصوص؟ رجع جوز الحولا؟ لكن صالح قال اسمحوا لي أن أقص عليكم حكايتي وحكاية الشيخ.

غادرنا أنا والشيخ أمين يافا في سفينة متوجهة إلى بلاد الخواجات، وعملنا ليل نهار مكان عمال الفحم، نلقي الفحم في الفرن الذي لا يخبو أبدا. كان عملا شاقا لم يتحمله الكثيرون، خاصة أنهم حُرموا من استنشاق الهواء النقي، أو أكل الطعام الكافي، حتى أن بعض أصحابنا المهاجرين وافته المنية، فما كان من العمال إلا أن ربطوا ثقلا إلى جسمه ورموه في البحر طعاما للأسماك. في تلك الأيام العصيبة، كان الشيخ دائم التفكير بعائلته وبلده، وكان يقول:

– ما الذي ألقى بنا إلى هذا المكان؟ وما الذي صنعناه بأنفسنا؟

وكنت دائما أحاول تثبيته وأقول له:

- "ما بسوقك على المرّ إلا الأمرّ منه."

وكان يحدثني عن بيت حنينا، عن المروج الخضراء، عن الزيتون الرومي الذي يزين الجبال، عن موسم الحصاد، عن المشمش والبرقوق والخوخ والرمان، عن كروم العنب وحقول التين، وكان دائما يقول:

- والله إن حبة قطّين من بلدي أفضل من كنوز الدنيا.

تمكنّا من الوصول إلى أوروبا، ومن ثم في سفينة أخرى إلى أمريكا، وذلك بعد شهرين من المعاناة والعمل الشاق. وأخيرا وصلنا إلى جزيرة صغيرة لا تبعد كثيرا عن اليابسة، وكان بها أعداد غفيرة من الناس من مختلف الأمم والشعوب، وكل واحد منهم ينتظر دوره للدخول إلى أرض الأحلام؛ إلى أمريكا. وقفنا في طوابير طويلة، ولساعات عديدة، حتى أتى دورنا، وأُدْخلنا إلى طبيب فحص أجسامنا التي هزلت من طول عناء السفر، من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا. ثم دخلنا عند فاحص آخر أخرج لنا كتابا باللغة التركية، وطلب منا القراءة. قرأ الشيخ، أما أنا فلا أعرف قراءة العربية فضلا عن التركية.

وُضعنا في سجن يشبه القلعة مع عدد كبير من الناس المتعبين والمرضى، لم نفهم ما قالوا لنا، ولكنا أدركنا أنهم سيعيدوننا من حيث أتينا. ومكثنا أياما، نقاسي ألم الغربة وذل السجن، قبل أن يأتينا رجل يتكلم العربية بصعوبة، أخبرنا أنه من بلاد الطليان، وأخبرنا أنّ بإمكانه أن ينقلنا إلى البر مقابل أن نعمل أجراء عنده. وافقنا على عرضه، فلم يكن أمامنا إلا أن نرضخ، فالعودة بعد كل هذا العناء كانت خيارنا الأخير. وفي

الليل، نُقلنا بالتعاون مع بعض حراس السجن إلى قارب صغير أبحر بنا بعيدا وأوصلنا إلى جزيرة أخرى، عامرة بالعمائر ومكتظة بالبشر، لم نر مثلها من قبل. وقادنا الرجل إلى مكان متسع أسفل إحدى العمائر، وهناك عملنا ليل نهار في حياكة الملابس مقابل القليل من الطعام. فكرنا بالهرب مرارا، لكننا ترددنا في ذلك، حيث لا ندري أين نذهب وماذا نفعل.

ما أصعب أن يصبح الإنسان عبدا بعد أن كان حرا طليقا! ما أقسى أن يحشر المرء في قبو مظلم بعد أن كان يجوب الحقول والبراري! ما أصبر الإنسان على الجوع والعوز أمام الذل والمهانة! ما أبهى جور بلادي أمام ظلم وظلمة ذلك القبو! لقد كاد الندم يقتلنا، وعضضنا أطراف أصابعنا في كل يوم وفي كل لحظة، لكن الندم لم يكن لينقذنا من واقع أليم وضعنا أنفسنا فيه طائعين!

مضى عام في ذلك المكان الكئيب، قبل أن يداهم العسكر المعمل ويقتادونا إلى معسكر متسع مع آلاف من الناس الآخرين. ظننا أن الفرج قد جاء، وأنهم سيعيدوننا إلى بلادنا. لكننا علمنا لاحقا أننا في معسكر اعتقال تحتجزنا الحكومة الأمريكية مع كل الأشخاص الذين ينتمون إلى بلدان تشارك في الحرب ضد حلفائها. وفي المعسكر، كان هناك كثير من الأتراك والألمان واليابانيين وغيرهم، وقد اعتقلنا لأنهم يعتبروننا رعايا لدولة تركيا.

كانت الظروف صعبة جدا في معسكر الاعتقال، فقد كان الفصل شتاء والبرد قارسا وتساقطت الثلوج باستمرار. وقد استَخدَمَنا العساكر بالعمل، فكنا نقطع الأشجار الضخمة لنفتح الطرق خلال الغابات.

وكان عملا شاقا لا يطاق، خاصة مع شدة البرد وقلة الطعام. لذلك مات كثير من المحتجزين. وكلما مات أحد المسلمين، صلى عليه الشيخ أمين ودفناه. وفي ذلك المعتقل علمني الشيخ القرآن فحفظته عن ظهر قلب.

تدخل في تلك اللحظة أبو ملحان قائلا:

شفت جوز الحولا هناك؟

لكن الرجال أسكتوه وطلبوا من صالح متابعة الكلام.

وفي يوم من الأيام، وبينما كنا نقطع الأشجار في سفح أحد الجبال، رأينا كمية كبيرة من الثلج تتدحرج باتجاهنا. حاولنا الهرب، لكن الثلج كان أسرع منا وغُمر الكثيرون تحته ، ومات أكثر من مائة رجل. وفي اليوم التالي صلينا على الموتى ودفناهم.

– وماذا حدث للشيخ؟ سأل المختار.

– مات، رحمة الله عليه. أجاب صالح.

– هل أنت متأكد؟

– نعم، أنا دفنته بيدي.

وجم الرجال، وتحول الفرح إلى ترح، وشقّت النساء الجيوب، وعُقد بيت العزاء في باب الدار لمدة ثلاثة أيام. ولم يعد أحد يذكر الصوص إلا عندما يسأل أبو ملحان: رجع جوز الحولا؟ رجع الصوص؟

وفي الأيام اللاحقة، غادرت جليلة زوج الصوص الدار مصطحبة ابنتها وعادت إلى قريتها، فلم يعد لها شيء هنا لتنتظره، فقد مات زوجها،

وهي لم تشعر يوما فيما مضى أنها مرحب بها، بل كانت تعاني من نظرات العجائز وتلميحاتهن كل يوم، فقد انتقلت عدوى طرد الدجاج بقول (كش غريبة) من الحاجة خديجة إلى جميع عجائز الحي. وفي اليوم التالي عادت نعيمة ابنة الصوص إلى بيت أبيها، فزوجها لم يرجع من العسكرية حتى بعد سنوات من دخول الإنجليز ومغادرة العثمانيين.

بعد عدة أشهر، تزوجت جليلة من رجل قادم من شرق الأردن، واصطحبت ابنتها، وعاشت في بلدة بعيدة جدا عن ديارها وديار الصوص.

مرت السنون، وتوفي أبو ملحان ولم يعد أحد يذكر الصوص أو جوز الحولا.

***

كانت مدينة يافا تعج بالحركة، فأصوات التجار تملأ المكان، والصيادون يلقون بشباكهم في البحر، وعساكر الإنجليز تجوب المكان وتحرس الميناء الذي رست فيه العديد من السفن الضخمة المحملة ببشر بسوالف ملتوية، يعتمرون قبعات غريبة عن روح المكان وثقافته، وينزلون مسرعين إلى الشاطئ. هؤلاء القادمون توجهوا إلى المستعمرة القريبة التي كانت قد تضخمت وزادت مساحتها، وأحاطها روادها الجدد بالحراس المدججين بالسلاح.

هناك راكب واحد، مشى في شوارع يافا تلفّه الحيرة والألم. إنه الصوص! .. إنه الشيخ أمين! .. ألم يمت الشيخ؟ بلى، ولكنه ها هو يعود!

استقل الصوص القطار المتوجه إلى مدينة القدس، وكان يتحدث

لجليس له رافقه في السفر.

سأل المرافق: وما حصل بعد أن انهار الثلج عليكم؟

الصوص: لا أدري، فعندما صحوت وجدت نفسي ملقى في مشفًى بين عدد كبير من المرضى.

- ثم ماذا؟

- غادرت المستشفى بعد أيام، ووجدت نفسي في مدينة كبيرة بلا مال ولا معين. وقضيت السنوات اللاحقة أتنقل من عمل إلى آخر حتى استطيع أن أؤمن تكاليف رحلة العودة إلى بلدي. كم أشتاق لرؤية بلدي وبيتي وزوجتي وأولادي!

مسكين هذا الصوص. فهو لا يعلم ما حلّ بعائلته في غيابه. هو لا يدري أن زوجته قد تزوجت غيره وأخذت ابنته إلى مكان بعيد، ولا يدري أن ابنه خضر قد رحل، رحل عن الدنيا! لقد مات الشاب، مات عندما حاصر عساكر الإنجليز البلدة باحثين عن الثوار، اختاروا من الشباب أشجعهم وأطلقوا عليهم النار في بيادر القرية. مسكين يا صوص، كيف ستصبر على ما ينتظرك من أخبار؟

وصل الصوص إلى مدينة القدس ولاحظ أنها قد تغيرت كثيرا، فكثير من البيوت بنيت خارج أسوار المدينة، وقد أصبحت (الاتومبيلات)[٧] تتنقل في شوارعها الجديدة.

مشى الصوص باتجاه بلدته، ومر بدكان يوسف اليهودي، ونادى العجوز مخاطبا الصوص:

٧ المركبات الآلية، باللهجة السائدة في ذلك الوقت.

- تفضل خبيبي.

لكن الصوص أهمل الصوت وتابع سيره دون أن يأبه له، وقال في نفسه:

لم يعد دكان يوسف وحيدا فقد أصبح هناك كثير من المحال بجواره، وأصحابها هم من اليهود أمثاله.

تابع الصوص مسيره شمالا حتى مر بواد المغارة قرب قرية لفتا، وكان (العفن) يجلس على صخرة يأكل رغيفه، وقد ربط بغلته بالقرب من المكان. ألقى الصوص التحية فأجاب (العفن):

- وعليك السلام. وتابع أكل رغيفه ولم يعرض عليه أن يردفه على بغلته.

تابع الصوص سيره فمر به أبو صابر راكبا حمارا أبيضا اشتراه من سوق الجمعة، وكان عائدا مسرعا إلى القرية.

ألقى أبو صابر تحية السلام على الرجل وتابع مسيره.

تعجب الصوص من موقف أهل بلدته منه، يتصرفون وكأنهم لا يعرفونه.

وصل الصوص إلى مقبرة القرية، وقرأ الفاتحة على أموات المسلمين قبل أن يصل إلى حاكورة (الدبوس) حيث كانت رائحة الخبز تملأ المكان.

كانت أم عطيّة تغادر الطابون، حاملة الباطية على رأسها، عندما لمحت الرجل قادما. مدت يدها لتناوله رغيفا عندما رأت وجهه فسقطت الباطية عن رأسها. وصاحت:

- هذا الصوص، خرج من القبر!

تجمعت العجائز حول الصوص يتفحصن وجهه، ويتأكدن من هويته. وقد أذهلته غرابة الاستقبال. وسألت إحدى العجائز الخرفات: رجع جوز الحولا؟

سيضطر الصوص أن يحكي قصة غيابه مرات ومرات في الأيام القادمة، ليسمع بالمقابل قصة وفاة ابنه وعودة ابنته نعيمة ومغادرة زوجته وصغيرته.

لقد كانت فاجعة الصوص بأهله هائلة حتى أنسته معاناة سنوات الغربة، فهو لم ينسهم على مر السنين، وما زال صوت الرضيعة خضرة يرنّ في أذنه عندما غادر الدار في ذلك الصباح الشتوي. وها هو ذا يعود ليجد بيتا خاويا، أمامه ساحة تسمى باب الدار، محاطة بالحجارة الملساء وتجلس عليها العجائز.

أصر الصوص على لمّ شمل عائلته مرة أخرى، ودأب يسأل عن أخبار جليلة وابنتها، حتى اهتدى إلى مكانهما في شرق الأردن. تجشم الشيخ عناء السفر حتى وصل بيت زوجته التي كانت قد أنجبت من زوجها الجديد! أصر الصوص على اصطحاب ابنته معه، لكن البنت تعلقت بأمها وأجهشت بالبكاء، فهي لا تعرف هذا الغريب!

تمسكت خضرة بطرفي ثوب أمّها، واحتمت خلفها وجلا من ذاك الرجل الذي جاء يخطفها من حضن أمها.

– أنا أبوك يا خضرة، اقتربي مني.

قال الصوص بصوت حنون.

لكن الفتاة أشاحت بوجهها عنه وازدادت التصاقا بجسد أمها.

– أنا لم اقصد أن أغيب عنك، كنت أسعى لتوفير حياة أفضل لكم. أرجوك أن تسامحيني.

لم تجب الفتاة، وانزوت في حضن أمّها غير عابئة بالصوص ومشاعره، فهي لم تره قبل الآن ولم تشعر أبدا أن لها أبا يحبها ويحنو عليها.

يا لخضرة المسكينة! حرمت من حنان الأب وهي طفلة صغيرة، وستحرم من حنان الأم أبدا. هكذا يفعل قرار خاطئ، هكذا تفعل الغربة، وهكذا يحكم الدهر على من سمح لنفسه أن تدفعه إلى مغادرة الوطن. فثمن الغربة غال جدا، يدفعه الأبناء كما يدفعه الآباء.

انتظر الصوص إلى ساعات الليل، وعندما نامت خضرة، وضعها والدها في عباءته وحملها على ظهره وحث السير بها. ولم تستيقظ الصغيرة إلا بعد ساعات طويلة، وكان والدها يغوص في الماء وهو يقطع نهر الشريعة متجها إلى بلده. صاحت البنت واستنجدت بأمّها التي أصبحت بعيدة عنها ولن تستطيع إجابتها. لقد حكم القدر، لن ترى خضرة أمّها بعد اليوم.

عاد الصوص يلبس جبته وعمامته، ويذهب إلى القدس صباح كل يوم جمعة للصلاة. وفي كل رحلة، كان يوسف اليهودي يناديه: تفضل، وهو يهمل نداءه. ورأى بأمّ عينيه دكاكين وبيوت اليهود تزداد حول دكان يوسف. لكنه كان محظوظا إذ لم تطل به الحياة حتى يرى الطريق التي تمر أمام دكان يوسف تسقط في يد اليهود، ويسقط معها معظم البلاد، في عام ١٩٤٨.

وقد كان الصوص يردد دائما: "ليتني لم أغادر بلدي بتاتا، لم أجنِ إلا الحزن والعذاب، واعجباه من أناس ما زالوا يغادرون الوطن"!

****

(٣)

راس الطريق

هز أبو رزق رأسه قائلا: "لم نعد نستطيع الوصول إلى (راس الطريق)[٨]، يا لطيف"!

لم يعلق سليمان الأهوج على كلام أبي رزق، فقد اعتاد أن يسمعه كل يوم منذ أن أغلقت الطريق التي تربط قرية بيت حنينا القديمة مع بلدة بيت حنينا الجديدة، التي تقع على بعد كيلومترين إلى الشرق.

فسليمان أو"الأهوج" كما يطلق عليه من تبقى من أبناء القرية، هو صاحب البقالة الوحيدة في البلدة، والتي ما زالت تعمل. وقد اعتاد أبو رزق أن يقضي ساعات النهار يتجاذب أطراف الحديث مع سليمان، فيجلس متكئا على الرف الذي رتبت عليه قطع الصابون النابلسي بعناية، فتزيل حطته البيضاء (دون قصد منه) بعض الأتربة والغبار الذي تراكم عليها حتى غطى علامة الجمل المميزة. ويتأمل أبو رزق أشجار الزيتون الروماني التي تظهر من بعيد خلف الجدار الذي بني

٨ الاسم الذي كان يطلقه أهالي قرية بيت حنينا على الحي الشرقي المعروف ببيت حنينا الجديدة.

غربي القرية، ففصلها عن أراضيها الزراعية.

يسرح أبو رزق بمخيلته، ويعيش أياما كان يطوف بها أرجاء البلدة، يرى جماعات من النسوة يبكرن إلى عيون الماء في الجبال الغربية، ويعدن يحملن قربهن، يتحدثن بسعادة غامرة، رغم مشقة العمل ووعورة الطريق. يتذكر أرتال الحراثين يتبعون دوابهم مسرعين وينتشرون في جهات البلدة الأربع، يحرثون أشجار الزيتون في الجبال الغربية، وتختفي دوابهم بين كثافة أشجار السهل الشاسع، ومنهم من يتجه شرقا لبذر الحبوب في الأراضي المتاخمة لقرية حزما. يرى الرجال يعودون ليتحلقوا في الساحة المتاخمة للمسجد، يتبادلون الحكايات، يمرحون ويضحكون رغم شظف العيش. ثم يجتمعون في المساء في المضافة، أو يتحلقون على الحجارة الملساء في باب الدار، تدور عليهم فناجين القهوة العربية، ويستمعون لأحاديث الكبار عن تاريخ عريق لقريتهم، ضاربة جذوره في أعماق الزمن، تماما كشجر الزيتون الذي يقف شاهدا على هذا التاريخ. وكانت شوارع القرية وأزقتها عامرة بأهلها، دائمة الحركة منذ ساعات قبل الفجر حتى صلاة العشاء، عندما يهجع الناس ويتركون لليل سكونه.

وكان أهالي (راس الطريق) يغبطون سكان القرية على حياتهم البسيطة، رغم أنهم لم ينفصلوا أبدا عن حياة القرية، فلقد كانت القرية بالنسبة لهم مسيرة دقائق ينتقلون خلالها من جو المدينة، حيث الطرق العريضة والمباني الشاهقة إلى جو القرية البسيط الذي احتفظ بسمته منذ آلاف السنين. كان خبز الطابون، وفاكهة المشمش، والبيض البلدي، في متناول أيديهم، حينما تتوق أنفسهم للأصالة، وبالمقابل كان القروي

على بعد دقائق من مدينة هي جزء من قريته!

لم يعد مصطلح (راس الطريق) شائعا بين أبناء بيت حنينا المقسمة والمحاصرة من جميع الجهات. فـ(راس الطريق) مصطلح يبدو الآن مستهجنا عند أبناء البلدة الجديدة، التي أصبحت جزءا من مدينة القدس، وهي بدورها محاصرة من جميع جهاتها بالجدر والمستوطنات. فمعظم سكانها هم من أبناء المدينة، والقليل منهم من بقايا أهالي القرية، وحتى هؤلاء فقد نسوا مصطلح (راس الطريق). فقد أصبحت بيت حنينا الجديدة تعرف بـ"بيت حنينا"، التي تزخر بالبنايات العالية، وتزدحم شوارعها بأناس يتكلمون مختلف اللهجات الفلسطينية، وأصبح ما وراء الجدار مكانا بعيدا مجهولا، لا يأخذ حيزا كبيرا من تفكيرهم في خضم أعباء الحياة العديدة التي تواجههم كل يوم.

ربما بقي شخص واحد ما زال يذكر (راس الطريق)، هو أبو رزق، وهو يصر على تذكير الناس به في أحاديثه التي تملأ جنبات ميدان "ورا الجامع"[٩] وتنطلق من دكان الأهوج.

فكلمة (الطريق)، في قاموس أبي رزق، تعني ذلك الممر الرفيع الذي كان يصل بين أجزاء بلدته، ولا يعرف طريقا سواها، وهكذا كان الحال لكل أبناء القرية. فعندما كان يُسأل أحدهم:

- "وين على باب الله؟"

يقول:

- "رايح على الطريق."

٩ ميدان في وسط قرية بيت حنينا.

ويفهم ضمنا أنه ذاهب إلى بيت حنينا الجديدة.

لن يستطيع أبو رزق يوما أن يتخيل أن الرأس قد أزيل من أعلى الجسد، فهو يعلم أن الجسد بلا رأس هو جثة هامدة لا حراك بها. وما دام يجلس "ورا الجامع" فإن الجسد ما يزال حيا، وما يزال القلب ينبض وإن كان نبضه خافتا.

شَخَصَ أبو رزق ببصره نحو الحاجة خضرة التي كانت قادمة باتجاه دكان الأهوج، فرؤية آدمي مقبلا نحو الدكان أصبح من الأمور النادرة في هذه البلدة المنكوبة. لكن، ما زال هناك قلة ممن يبعثون الحياة في هذا الجسد المنهك. نظر أبو رزق إلى العجوز التي جاوزت التسعين بثوبها المطرز الخلق، وقد لفت على وسطها (شملة) مزركشة، مترنحة في مشيتها وقد أعيتها السنون.

بادر أبو رزق بالكلام حتى قبل أن تطرح الحاجة خضرة السلام قائلا:

- "ساق الله على أيام زمان".

تنهدت الحاجة بعمق، وهي تزيل الغبار عن علبة السردين التي كانت ستشتريها قائلة:

- الله يرحم تلك الايام.

قال أبو رزق وقد أثار فيه تجاوب الحاجة روح الحديث عن الماضي التي تشتعل دوما في نفسه:

- في مثل هذا الوقت، كان (ورا الجامع) يغص بالرجال، مائتي رجل على الأقل.

أخذت الحاجة خضرة نفسا عميقا واتكأت بظهرها على باب المحل قبل أن تجيب:

- أتذكر مقهى عبود ودكان أبي العبد؟

- ومقهى أسعد أيضا، أتذكرين يوم وضعوا خطا على حائط الجامع ليقسموا ميدان (ورا الجامع) بين الاثنين.

- يومها خرج عليهم الشيخ عبد الرحيم وقال لهم: "حرام تقسموا الجامع بين المقهيين." وبعدها لم يتفقا أبدا على الحد الذي يفصل نفوذهما.

ضحك أبو رزق وانفرجت أسارير وجهه، فقد وجد من يحدثه عن الأيام الخالية، وهذه متعة الحياة عنده. وأسهب قائلا:

- كانوا في الماضي يفرحون للذي ينوي السفر، ويقيمون له حفلة يحيونها بالغناء والسمر، حتى فرغت القرية من أبنائها.

قالت الحاجة خضرة وقد بدا الأسى على قسمات وجهها:

- أتذكر عندما سافر رزق؟

- وهل ذلك يوم ينسى؟ أجاب أبو رزق بصوت عميق، لا يخلو من الحزن والشعور بالخيبة.

- غنت له النساء عندما حصل على التأشيرة يومين، ثم عاد الغناء في الليلة التي سافر بها.

- وزفّه الرجال إلى محطة الحافلات.

- وعندما تأكد خبر وصوله إلى أمريكا، غنت النساء لأمّه.

قال أبو رزق:

- لقد عملت سنين طويلة حتى استطعت سدّ المال الذي اقترضه ليدفع تكاليف سفره؟

- ولم تفك رهن قطعة الأرض والزيتون، أليس كذلك؟

- أمّه كانت تعمل في (الكوبانية) عند اليهود، وترسل له المال إلى أمريكا.

- وماتت وهي تنادي: "وينك يمّا يا رزق".

- ورزق، لم يعد أبدا.

قالت الحاجة خضرة والحسرة تبدو من بين تجاعيد وجهها:

- ليس رزق فقط، الذين مثل رزق لا يمكن عدهم.

انطلقت الحاجة خضرة مبتعدة عن الدكان، فقد أثار أبو رزق مواجعها، فهي نفسها قد فقدت أحد ابنيها في بلاد الغربة. فابنها عزّام غادر إلى كولومبيا قبل أكثر من خمسين عاما وتلاشى في تلك البلاد البعيدة. أمّا ابنها الأصغر، الذي لم يهاجر، فإنه كان يسكن في (راس الطريق)، وفصله جدار العزل عنها، وتوفي قبل أن يستطيع زيارتها.

عاد أبو رزق ليردد:

- "ساق الله على هذيك الايام".

فعلق الأهوج، الذي لم يرق له تكرار هذه العبارة:

- أيّ أيام تقصد؟ فنحن لم نر يوما سارّا في حياتنا.

– كلامك صحيح يا حاج، لكن البلدة كانت عامرة بأهلها وبخيراتها، وكانت تسود المحبة بين الناس وكانت قلوبهم على بعض.

خرج أبو رزق مسرعا من دكان الأهوج، وتتبع خطوات الحاجة خضرة التي كانت تتهادى في مشيتها مثقلة بأنواء السنين. أمّا أبو رزق فما زال يرى فيها مسحة من جمال رغم سنواتها التسعين، فهي مَنْ تُذَكِّره بالأيام الخوالي، أيامَ كان كثير من شباب القرية يتمنون الحصول على نظرة منها. فقد سرح بفكره وتذكر أياماً عندما كانت عائلته تعزّب[١٠] في موسم التين في منطقة (عدّاسا) شمال شرق القرية.

كان موسم التين أحب المواسم لأبي رزق في شبابه. ليس لأنه كان يفضل التين على غيره من الفواكه، ولكن، لأن بساتين التين التي تخص عائلته كانت قريبة من بساتين خضرة، ففي أثناء إقامة العائلتين في عرائشهم بين أشجار التين، كان أبو رزق يختلس النظرات باتجاه عرائش عائلة خضرة، فيحظى منها بنظرة تعيش معه أياما طويلة حتى يحظى بنظرة أخرى.

ربما كان أجمل يوم في حياته عندما كان مستلقيا تحت شجرة التين الخضري وارفة الظلال، عندما سمع صوتا شجيا ينادي اسمه: محمود .... محمود. وتكرر الصوت داعيا اسمه دون خوف ولا وجل. لا يمكنه أن يخطئ هذا الصوت إنه صوت خضرة! ولكن، كيف بلغت بها الجرأة أن تناديه بهذه الطريقة باسمه دون اعتبار لكل الموانع الاجتماعية التي تحول دون ذلك؟

قفز أبو رزق فانتصب واقفا. كان في ريعان شبابه، وعنفوان قوته، ليس

١٠ تعزَب: تعيش خلال الموسم في الحقول.

كحاله اليوم بالكاد يجر أقدامه خلف العجوز خضرة. كان ذلك أعذب صوت سمعه.

- نعم، ما بك؟ قال الشاب محمود وهو ينظر إلى قدميه.

- أبي يقول لك: أخرج حماركم من كرمنا.

- حسبي الله ونعم الوكيل عليه، ما أن ينفلت من الرسن حتى يتوجه إلى أرضكم. هو أيضا يعشق رائحة أرضكم. ماذا أفعل به؟

ضحكت خضرة لكلامه، ومشت متمايلة باتجاه عريشتها وتبعها أبو رزق، يحث الخطا نحو حماره الذي كان يرتع في كرم خضرة، ولسان حاله يقول مرحى لهذا الحمار!

نظر أبو رزق نظرة إلى العجوز خضرة، ثم نظر عن بعد إلى جبل عدّاسا خلف الجدار العازل، ولاحظ الشبه بينهما، فعداسا أصبحت أرضا جرداء لا تين فيها ولا عنب، معزولة بعيدة، كالعجوز الهرمة التي فقدت نضرتها.

ما إن خرج أبو رزق من دكان الأهوج، حتى دخله قط واندس بين بضائعه المتناثرة على الرفوف الخشبية، التي أعياها الزمن وغير لونها، وانحنت كظهر عجوز هدته السنون. بحث الأهوج عن القط ولم يجده واحتار في أمره. تبسم الأهوج عندما تذكر كلام أبي رزق في ذاك الصباح عن القطط، فقط اشتكى الشيخ من ندرة القطط في البلدة، بعد أن كانت لا تعد ولا تحصى قائلا:

- والله يا حاج سليمان، حتى القطط هجرت القرية إلى (راس الطريق) ولم تستطع العودة بسبب الجدار، لم أعد أرى أيّ قط في البلدة.

وتذكر سليمان أنه أجابه:

- غادرت القطط البلدة بحثا عن الطعام، فمن سيطعمها في هذه القرية الخاوية؟

تبسم الأهوج عندما تذكر كلام أبي رزق وقال في نفسه عندما يئس من إخراج القط:

- سأترك (غضيب الوالدين) في المحل، لعل أبو رزق يراه في الصباح، فهو يشتهي رؤية القطط، رؤيتها تجوب الحارات تعيد له ذكريات أيام زمان.

ظهر أَرْوَد فجأة أمام دكان سليمان الأهوج، ووقف هناك على كفيه[١١]! وحك أنفه بحذاء سليمان، والذي ركله بعيدا. قال أرود وهو ينظر إلى أعلى:

- أين أبو رزق؟

- ما شأنك به؟

أجاب الأهوج.

- يجب أن أعرف أين ذهب!

أجاب أرود وقد أسرع خلف أبي رزق والحاجة خضرة.

****

١١ أرود يمشي على يديه!

(٤)

عليّة الحاجة خضرة

كانت معرفة الحاجة خضرة لتاريخ ميلادها مدعاة للتباهي أمام عجائز القرية، فبينما يتكهن الناس بأعمار كبار السن في البلدة، فتارة يكون أحدهم تسعين عاما، وفي مناسبة أخرى يقسم أحدهم أنه لا يتخطى الثمانين! فإن تاريخ ميلاد الحاجة خضرة محفور على حجر التاريخ في العليّة. وقد أخبرها أبوها أنها ولدت في اليوم الذي وضع فيه حجر التاريخ على العلية التي أضيفت إلى بيت العائلة في ذلك الوقت. ولا تفتأ الحاجة خضرة تسأل (تينة) كلما حضرت لزيارتها وتقول لها:

- اقرأي لي التاريخ على العليّة.

فتقول لها:

- ٢٤/ ربيع الثاني/ ١٣٣٢هـ الموافق لِ ٢١/ ٣/ ١٩١٤م

فتبادرها الحاجة خضرة:

- حسنا، احسبي لي كم أصبح عمري.

وهكذا أصبح كل شخص في القرية يعلم عمر الحاجة خضرة، وعمر عليتها. فعلية الحاجة خضرة – كما الحاجة نفسها – مَعْلَم من معالم البلدة. فما أن يطلّ أحد على البلدة من بعيد، حتى تتراءى له العلية شامخة فوق بيوت القرية القديمة. وعندما توسعت القرية، بنيت البنايات الحديثة ذات الطوابق المتعددة، لكنها لم تستطع أن تطغى على شموخ العلية في قلب البلدة.

والحاجة خضرة، عاشت في ذاك البيت وفي ظل تلك العلية طوال سنوات حياتها، لم تغادرها بتاتا من يوم أن أحضرها والدها طفلة صغيرة محمولة في عباءته. وعندما تزوجت من ابن عمها، رضوان، انتقلت من غرفة في البيت إلى حجرة أخرى. لذلك فإن الحاجة خضرة شهدت كل الأحداث التي دارت في تلك العلية على مدار تسعين عاما.

نظرت الحاجة خضرة إلى عليتها، التي لبست حلة من النباتات الخضراء التي نمت بين الشقوق التي رسمها الزمن على جدرانها، وقد خيّم عليها الصمت القاتم، لكن أصوات رجال القرية شقت عباب الزمن ودوّت في أذنيها: "دَنْدَنْ! .... وَرْسَنْ"!

فالعلية كانت ملتقى لأهالي القرية، يتسامرون فيها في ساعات المساء. يتجمع الرجال من حمائل القرية الثلاث، يتبادلون الحكايات ويناقشون المشاكل التي تواجه القرية، ويتحدثون عن المحاصيل والمواسم المختلفة، ويلعبون لعبتهم المفضلة.

يُحضر الرجال تسعة فناجين، ويضعون تحت أحدها خاتما، وعلى المتسابق أن يختار الفنجان الذي يخفي الخاتم، وعندما يختار المتسابق الفنجان الأول، ينتظر الرجال بشغف لحظة رفع الفنجان، فينفجر

صوت عالٍ "دندن" إذا كان فارغا، وأما إذا ظهر الخاتم فتصدح أصوات تملؤها البهجة: "ورسن." وكانت العادة أن يقسم الحضور إلى ثلاث فرق، كل فرقة تمثل إحدى حمائل القرية. وفي نهاية السهرة يتناول الرجال طعام العشاء الذي يحضره الفريق الخاسر.

لم تكن سهرات رجال القرية تعمها البهجة دائما، فعند حصول شجار في القرية، كانت تتعالى أصوات الرجال حتى لا تستطيع خضرة فهم أي شيء. وعادة ما كان الشجار يحصل بين أبناء حمولتين مختلفتين، فيحضر الفريق المعتدى عليه غاضبين إلى العلية، وكل منهم يريد أن يستأثر برواية أحداث الشجار، فتتداخل الأصوات حتى لا يستطيع أحد فهمها، عندها يصيح بهم المختار بالسكوت، فيصمتون هنيهة قبل أن يعاود الجميع الصراخ من جديد. لا يكتفي الرجال بالصراخ بل يهددون خصومهم بالويل والثبور، ويحلفون الأيمان المغلظة بأنهم سيفعلون بهم ما لا يخطر على بالهم. يهدئهم المختار قائلا:

- إذا ما وصلكم حقكم خذوه مني، وأنا رقبتي سدّادة.

بعد قليل يحضر مجموعة من رجال الحمولة الأخرى ويدخلون العلية، يزداد الهرج والمرج بين الفريقين، وترتفع الأصوات تارة، وتخفت تارة أخرى، وفي نهاية المطاف، يحتسي جميع الحضور فناجين القهوة العربية، ويقوم الرجال بتقبيل رؤوس بعضهم، ويعم الوفاق بينهم من جديد.

والحاجة خضرة تذكر جيدا جميع المشاكل التي حُلَّت في العلية، بعضها كانت مجرد خلافات بسيطة: فعندما نزلت نعجة الحاج راشد على كرم نعيم الحمد، وأكلت "لباليب" العنب في فصل الربيع، كادت أن تتحول المشكلة إلى شجار بين الحمولتين لولا تدخل المختار لحل المشكلة التي

انتهت كالعادة بشرب فنجان القهوة، وعاد الوئام بين أبناء البلدة.

لكن الحاجة خضرة تذكر أيضا عندما قُتِل حسن نعمان برصاصة طائشة من بندقية علي صقر، عندما كان الاثنان يحرسان كروم العنب في إحدى الليالي المظلمة. كانت تلك أكبر مشكلة كادت تعصف بعلاقات المودة التي كانت تسود القرية، عندها تشاجر أبناء الحمولتين وتراشقوا بالحجارة، وفي تلك الليلة خلت العلية من الرجال، وسهر الجميع على أسطح المنازل مستعدين للعراك. لكنها مثل بقية المشاكل التي مرت على القرية، انتهت في العليّة، وعاد أبناء الحمائل الثلاث يلعبوا لعبتهم المفضلة – دندن ورسن.

دارت الحاجة خضرة في أرجاء عليتها، في تلك الليلة التي أعلن فيها عن بداية شهر رمضان، وقد عمها السكون. وتذكرت ليالي رمضان فيما مضى، عندما كان رجال القرية يحضرون أكواز السكر والبن والطعام إلى العلية في كل ليلة، وينتظرون صامتين صوت المؤذن صادحا معلنا ساعة الإفطار، وعندها تتعالى أصواتهم بالذكر والدعاء، قبل أن يتناولوا الطعام ويشكروا الله على نعمه، وكانت السهرة تستمر حتى ساعات السحر.

لن تنسى الحاجة خضرة تلك الليلة من ليالي رمضان التي حضر فيها رجل غريب إلى القرية، وكالعادة يبيت الغرباء في العلية. في تلك الليلة، أخلد الجميع للنوم، وفي الصباح لم يجدوا الغريب في فراشه، فقد غادر خلسة في ساعات الفجر الأولى، وعندها بدأت الشائعات تنتشر في القرية عن سبب غياب الغريب دون أن يودع أو يشكر أهالي القرية على حسن ضيافتهم. وقد زال عجبهم عندما أحضر جنود الإنجليز جثة

الرجل في منتصف النهار، ووضعوها في ميدان "ورا الجامع" وطلبوا من الأهالي التعرف عليها. عندها أدرك الجميع أن الرجل كان أحد الثوار المنتشرين في الجبال، والذين يهاجمون دوريات الإنجليز ومستعمرات الصهاينة التي كانت قد بدأت تنتشر في محيط القرية.

توالت زيارات الثوار للقرية بعد ذلك، وأصبحت العلية مكانا لاجتماعاتهم المفاجئة، وكان أهالي القرية يقدمون لهم كل ما يستطيعون من عون. فالحاجة خضرة لم تنس ذلك اليوم الذي امتلأت فيه العلية بمعاطف الفراء، فقد طلب المختار من كل من يمتلك "فروة" أن يحضرها إلى العلية، امتثل الجميع وأحضروا فراءهم – والتي كانت تعد ثروة في ذلك الوقت حيث كانت العائلة تتجمع تحتها لتقيها من برد الشتاء القارس، لكن الثوار الذين يقضون لياليهم في العراء أحوج إلى ذلك الدفء.

لقد انطلقت معركة تحرير المستعمرة جنوبي القرية من "باب الدار". تجمع عدد من الثوار، ولحق بهم العشرات من شباب القرية، هاجموا المستعمرة ودمروها. عاد الشباب سالمين واحتفلوا بطريقتهم المعتادة؛ اطلقوا وابلا من النيران في ميدان القرية، فأصابت رصاصة طائشة رضوان، زوج الحاجة خضرة، الذي أطل من العلية، وغاصت العلية بالدماء وتحولت الأفراح إلى أحزان.

تنهدت الحاجة خضرة عندما تذكرت زوجها رضوان الذي تركها وهي في ريعان شبابها، فهي تذكر ذاك اليوم جيدا، عندما امتلأت العليّة بالجنود الإنجليز، وسحبوا زوجها الذي كان ينزف واقتادوه مع عدد من شباب القرية. ولم يعلم أحد بعد ذلك إن كان مات متأثرا بإصابته،

أم شفي واحتجز في أحد السجون. أما خضرة فقد أحاطت ابنيها عزام وعدنان بذراعيها وكأنها تخشى أن يختطفا منها.

سالت دمعة من عين الحاجة خضرة لما تذكرت عزام. فعزّام كان كأقرانه من شباب البلدة متعلقا بفكرة السفر خارج البلاد. فمعظم الرجال من سن عزام غادروا القرية، وأكثرهم لم يعد إليها أبدا، بل أن كثيرا منهم انقطعت أخباره ولا يُعلم في أي الديار حلّ.

كان الرجال يتجمعون في العلية لتوديع واستقبال المسافرين من أبناء القرية. أما النساء فيتحلقن في باحة "باب الدار" لاستغلال الفرصة في الغناء والابتهاج. فخضرة تتذكر ذلك اليوم الذي عاد فيه أحد المهاجرين محملا بالأموال والهدايا، عندها غنت له النساء إلى منتصف الليل.

كان صباح ذلك اليوم، المرة الأولى التي ذكر فيها عزام نيته السفر، وكان ما زال طفلا يافعا، لكن هذه الفكرة ظلت تراوده حتى شب ولحق بأترابه رغم دموع خضرة وتعلقها بأطراف ثيابه. غادرها عزام ولم ينظر للخلف ومشى مبتعدا. كان ذلك الشبح الذي يمشي مسرعا آخر ما رأت الحاجة خضرة من ابنها عزام. ما زالت الحاجة خضرة تحاول ألا تنسى ملامح وجهه، فقد غاب في بلاد الغربة ولم يعد، ولم يرسل حتى ولو رسالة أو كلمة تطمئنها أين هو. لكن خضرة لم تفقد الأمل يوما من عودته سالما غانما، فهي تعيش مع هذا الأمل، ولا تفتأ تسأل عن عمرها، فهي لا تخشى الموت إلا لأنه سيسرق منها فرحة لقائها بابنها عند عودته.

سرقت الغربة عددا من رواد العلية، لكن مجد العلية عاد عندما أحضر

المختار جهاز الراديو. كان أول مذياع يدخل القرية، وضع في مكان مرتفع في العلية وتجمع الرجال حوله في كل مساء لسماع ذلك الجهاز العجيب. كان حضور المذياع إعلانا لانتهاء لعبة (دندن ورسن) فلقد وجد الرجال ما يسليهم عوضا عنها. استمعوا للأغاني، وضحكوا لتعليقات أبي طافش الذي كان يحاكي أهالي القرى، وطبعا استمعوا لنشرة الأخبار.

لم تكن أخبار المذياع تحمل ما يبهج النفس، بل كانت غالبا ما تحمل أخبار الهزائم وضياع البلاد. كان ذلك حافزا إضافيا للشباب لمغادرة القرية والنزوح إلى الغرب. ومع كل شاب يغيب كانت شمس العلية تؤذن بالأفول. حتى جاء اليوم الذي لم يحضر فيه أحد إلى العلية، فأجهزة الراديو كانت قد انتشرت في كثير من بيوت القرية، وأصبح التواجد في العلية يشكل خطورة على الشباب، فقد اعتاد ضباط الجيش الأردني الحضور إلى البلدة، والإقامة في العلية لعدة أيام حتى يستطيعوا ضم أكبر عدد ممكن من الشباب إلى قوات الحرس الوطني.

لم يكن معظم الشباب يرغب بالانضمام إلى تلك القوة، التي كانت إلى حد كبير عبثية لا توفر لهم التدريب الكافي، ولا تمنح لهم فرصة قتال العدو. بل كان أخذ الشاب إليها يحرم العائلة من مصدر رزقها، ومن القوة العاملة التي توفر لها العيش الكريم. لذلك هجر الرجال العلية، أما الشباب فقد هجروا البلد والوطن وتاهوا في صحارى الغربة.

بعد وفاة المختار، خلت العلية من أي زائر وبقيت الحاجة خضرة وحيدة، تصعد إلى عليتها وتنظر إلى أرجاء القرية تتفقدها.

نظرت الحاجة خضرة من عليتها ورأت الأراضي الزراعية التي كانت

تحيط بالقرية تتحول إلى أراض قاحلة. رأت أشجار المشمش والبرقوق تشيخ سريعا وتيبس، ثم كروم العنب تذبل وتختفي من الأفق. لم يعد القمح يكسو الحقول الشرقية بالخضرة ثم الصفرة، لم يبق في الأفق إلا أشجار الزيتون الرومية تغالب الزمن والإهمال فتغلبه بثبوتها في الأرض.

اختفى موسم المشمش القصير، فقد غابت أشجار المشمش بعد أن غاب زارعوها، ثم لحق به موسم البرقوق، الذي كان يضخ الحياة في أوصال القرية فيما مضى، وبقي موسم الزيتون يثقل كاهل عجائز القرية وشيوخها.

صعدت خضرة إلى عليتها في أيام الشتاء، فلم ترَ أرتال الحراثين يتبعون دوابهم إلى الحقول، ولم تسمع أهازيجهم تكسر حاجز الصمت. ونظرت من أعلى عليتها في فصل الصيف، ورأت البيدر يخلو من أكوام القش، ومن أصوات الأطفال الذين يعلون ألواح درس الحبوب التي تجرها البغال. لقد أفل نجم الزراعة من القرية بعد أن هجرها بنوها، فالأرض تعطي بقدر ما تأخذ من جهد أبنائها.

وفي يوم من أيام حزيران، بينما كانت الحاجة خضرة تتفقد عليتها، رأت جموعا من الجنود يتدفقون إلى البلدة من جهاتها الأربع. غطت غيمة سماء القرية وأظلمت أرجاؤها في وضح النهار، أو ربما أظلمت عيون خضرة وهي ترى جنود العدو يحتلون قريتها ويبددون أملها. لقد كانت ترجو أن تتحرر البلاد ويعود الغائبون ويعود عزام، وها هو العدو يصل إلى عقر دارها. دخلوا بيوت القرية بيتا بيتا وأخرجوا أهلها منها وأجبروهم أن يغادروها إلى العراء.

دخل الأعداء العلية، وأمروا الحاجة خضرة بالخروج، لكنها أبت. حاولوا اجبارها بالتهديد والوعيد، لكنها لا تخشى الموت، فتشبثت ببيتها وعليتها. ووجد الأعداء من العلية مكانا مناسبا لتكون مركزا لعملياتهم؛ فهي تطل على مساحات شاسعة حول القرية، وأصبحت العلية مركزا لقيادتهم وأقاموا فيها أياما وليالي، والحاجة خضرة ترابط في أحد أطرافها كالجبل الأشم لا تخرج منها رغم كل أنواع المضايقات التي مارسوها بحقها، فهي قد عقدت العزم أن لا تخرج من عليتها إلا إلى قبرها. وهكذا فقد دفع صمود الحاجة خضرة في عليتها قيادة العدو إلى الانسحاب منها، وخرجوا من القرية إلى أطرافها وعاد أهالي القرية إلى بيوتهم.

صمدت الحاجة خضرة في عليتها، وبقيت العلية قلعة شامخة تطل منها الحاجة كل يوم لتتفقد بلدها. رأت الحاجة خضرة المستعمرة التي أعيد بناؤها جنوب القرية وهي تنمو وتتوسع وتزحف نحو البلدة وكأنها وحش يوشك أن يلتهمها. ونظرت غرب القرية ورأت مستعمرة أخرى أطلت برأسها وبدأت تزحف نحوها. رأت الزيتونات الرومية وهي تختفي في بطن المستعمرة، ولم تعد ترى الطيور المهاجرة التي كانت تزور عليتها قبل أن تتوجه إلى عيون الماء الغربية.

نظرت الحاجة خضرة يوما شرقي القرية، ورأت شارعا ضخما يشق بطن الجبل، ويعزل البلدة عن شرقها، أصبحت أصوات السيارات المسرعة تصل إلى مسامعها بدلا من أهازيج الرعاة والفلاحين. حزنت خضرة ولم تعد تنظر خارج عليتها، وانكفأت داخلها تنتظر الفرج من رب العالمين، فهي لم ينقطع رجاؤها يوما من عودة ولدها عزام الذي

غاب منذ عقود.

عادت الحاجة خضرة يوما لتنظر من عليتها، عسى أن ترى غائبا يعود، أو أرضا عادت إلى الحياة. لكن هالها ما رأت! رأت جدارا يتلوى حول قريتها قد حجب الرؤية وسد جميع الطرق. لم يعد بإمكانها رؤية ما تبقى من الزيتونات الرومية، فقد ذهبت إلى غير رجعة، حتى الوادي الذي كان جارفا في أيام الشتاء اختفى من الوجود. نزلت خضرة تبحث عن الأولاد تسألهم عن تاريخ العليّة، فما وجدت أحدا من نبهائهم، فقد غادروا إلى بلاد الغربة دون أن تعلم، فقد اختفت عادة الوداع في العلية منذ زمن بعيد، وأصبحت الهجرة تتم بصمت.

كانت رائحة الطابون أكثر ما يشد الحاجة خضرة، على الرغم من أنه لم يخبز به منذ أمد بعيد، لكن رائحته المميزة كانت ما زالت تعبق في المكان. انقطعت رائحة الطابون يوما وسعت خضرة لتتفقده فما وجدته، بل وجدت كوما من الحجارة! هدم الطابون! فقد أصبح الخبز الجاهز يأتي خلال الحاجزالعسكري. ألقيت حجارة الطابون في البئر الأثرية بالقرب من العلية، وغابت البئر كما غاب الطابون وغاب شباب القرية.

حزنت الحاجة خضرة لهدم الطابون وردم البئر، لكن حزنها ازداد لما نظرت من عليتها ورأت المباني الجديدة تظهر في بيادر القرية! لقد كانت بيادر القرية مجمعا لمحاصيلها على مدى قرون عديدة. وهو ميدان في وسط القرية تمتلكه جميع عائلات البلدة، وكان كل ركن فيه قد خصص لإحدى العائلات لطرح غلالها فيه. وكان موسم الحصاد ودرس الحبوب من أكثر الأوقات التي يتجمع فيها الناس في مكان واحد، يحتفلون بثمار جهدهم وعرقهم على مدى عام كامل. لقد كانت البيادر

هي البوتقة التي تنصهر فيها كل خلافات القرية ويتجمع أهلها فيها، يجمعهم عمل واحد وشوق واحد.

لقد كانت البيادر معلما من معالم القرية مثلها مثل العلية، وها هي البيادر تختفي وكأن أهل البلدة قد أعلنوا أن مواسم الحصاد لن تعود، وأن تلك الأراضي خلف ذاك الجدار لم تعد تهمهم ولا أمل بزراعتها مجددا. ضاعت أراضي القرية الشاسعة وتلاشت خلف الجدار، ومن بقي من أهالي القرية بدأ يتصارع على المساحات المتاحة داخلها، حتى وصل الدور إلى البيادر، فاقتسمته العائلات – فأصبح فمكان كل كومة قش بيت.

ويا ليت هذه البيوت عامرة بالسكان! هذه البيوت خالية من السكان لأن من بنوها يعيشون في الغربة، وإنما بنوا البيوت رغبة في التباهي ومنافسة لغيرهم. تنهدت الحاجة خضرة بحسرة وألم وهي تستذكر أياما كانت فيه البيادر رمزا لخيرات القرية، ومكانا تثمر به جهود عام كامل من العمل الشاق.

لم يبق للحاجة خضرة من ذكريات الزمن الغابر إلا عليتها. فالبيوت القديمة التي كانت تحيط بها بدأت تختفي واحدة تلو الأخرى. فلقد أصبح من عادة المغتربين الذين يعودون لزيارة القرية أن يقوموا بهدم بيوت عائلاتهم الأثرية ووضع بيوت حديثة مكانها! وفي أغلب الأحيان كان المهاجر يعود لمهجره تاركا تلك الكتلة الحجرية خلفه.

لم تستطع الحاجة خضرة يوما أن تفهم سبب هدم البيوت القديمة. فهي دائما، ورغم بساطتها التي تصل أحيانا حد السذاجة، تعتقد أن الأموال التي تنفق في هدم البيوت الأثرية والتخلص من حجارتها، ثم بناء تلك

الكتل الإسمنتية مكانها، يجب أن تنفق في ترميمها والحفاظ عليها وعلى تاريخها، وخاصة أننا نعيش في صراع مع عدو يحاول طمس تاريخنا وهويتنا. لقد كانت الحاجة خضرة تعبرعن شعورها هذا ببساطتها المعهودة وتقول:

– لماذا تهدمون البيوت؟ عمروها بدل من أن تهدموها. جدودكم بنوها وعاشوا فيها. كل حجر شاهد على تاريخ هذا البلد. أنتم تهدمون، واليهود يأخذون الحجارة ويبنون. أنتم تهدمون تاريخكم، واليهود يبنون تاريخا مزيفا غير موجود.

لكن المغتربين، لم يكونوا ليستمعوا لكلام عجوز عاشت سنوات عمرها في بلدتها ولم تغادرها إلا نادرا. ماذا تعرف هذه العجوز من الدنيا؟ هم جابوا الأقطار وزاروا دول العالم قاطبة، ورأوا ناطحات السحاب والمباني الشاهقة في كل مكان. لماذا يتشبثون بجذور الماضي ويُبقون على هذه البيوت الخربة التي لا فائدة منها؟ لماذا لا يبنون بيوتا فارهة تعبر عن وضعهم المادي والاجتماعي في بلاد الغربة؟

وأما إذا ألحت عليهم الحاجة خضرة بالتقريع والعتاب، فكانوا يضعون اللوم على العدو ويقولون:

– ألا ترين يا حاجة أن اليهود لم يتركوا لنا أرضا للبناء، نحن مضطرون لهدم البيوت والبناء في البيادر.

عادت الحاجة خضرة إلى عليتها، ووقفت أمامها، ونظرت إلى الأعلى فرأتها شامخة كما عهدتها، لم ينل منها الزمان شيئا ولم تصل معاول الهدم إليها، فنادتها:

- يا عليّتي، الله يديمك فوق رأسي. أنت يا عليّة ثابتة مثل الزيتونة التي صار لها ألف سنة واقفة وما قدر أحد يزحزحها من مكانها. أنت يا عليتي مثل نبع الماء الذي سقى جدودنا ويسقينا، ونحن سنذهب ويبقى النبع يسقي أولادنا. يا عليتي! أبي عاد من الغربة ليموت فيك، وعمي المختار كان بنَفَسِه يُحْييك، وزوجي أصيب فيك، وابني عزام ولد فيك، وذهب لكنه سيعود ليعمرك بإذن الله، وإن شاء الله يا عليتي سأموت وأدفن فيك.

*****

(٥)

أَرْوَد

أرود يمشي على يديه!

أرود ليس لاعبا رياضيا ولا يؤدي حركات بهلوانية. أرود ليس معاقا، فله رجلان قادرتان على المشي مثله مثل بقية البشر. لكنه يمشي على يديه ... فعلا، يمشي على يديه!

عندما ولد أرود كان كباقي الأطفال، إلا أنه كان يتيم الأب، وأصبح يتيم الأمّ أيضا قبل أن يكمل العام الأول من عمره. اعتنت به الجدة التي كان قد كف بصرها، فلم تلحظ أبدا أنه بدأ يسير على يديه خلافا لبقية الأطفال. وهكذا شبّ أرود، يمشي على كفيه رافعا رجليه إلى أعلى ثانيا ركبتيه ومشيرا بقدميه بعيدا عن محور جسمه المعتدل.

اعتاد أهل البلدة رؤية أرود يطوف شوارعها وحاراتها ماشيا على يديه، فأصبح منظرا مألوفا لا يلفت انتباه أحد، حتى الأطفال توقفوا عن ملاحقة أرود في الأزقة قائلين: "يا أرود يا صعلوك ليش بتمشي على يديك." أمّا أرود فلم يعبأ أبدا بصراخ الأطفال، ولا إيماءات الكبار

الذين كانوا يرمونه بنظرات الاستغراب والاستهجان، عندما يرونه يجوس الأزقة ماشيا على يديه ببراعة دون أن يضطر أن يعتدل ليقف على رجليه ولو للحظة واحدة.

لم ينتشر خبر أرود خارج حدود قريته، فالقرية محاطة بجدار الفصل من جميع أنحائها، ولا يتم الوصول إليها إلا عبر حاجز عسكري لا يسمح بدخول الغرباء. لذلك فإن خبر أرود لم ينتشر خارج قريته، ولم يتحدث به إلا أولئك القلة الذين يسكنون تلك البلدة المنكوبة.

احتار أهل القرية كثيرا لظاهرة أرود. أرود الذي يسير على كفيه بدلا من قدميه. لم يجدوا تفسيرا مقنعا، فبدأوا يتداولون الشائعات حتى أقنعوا أنفسهم بها وصدقوها. قالوا وُلِد أرود لشيطان! نعم، ذاك الشيطان الذي قتل "أباه" ونكح أمّه، وسماه ذلك الاسم الغريب، ثم قتل الأمّ عندما كان أرود رضيعا. هكذا قالوا، وصدق كثير منهم هذه الرواية الغريبة، لكنهم بحثوا عن رواية غيرها لأنهم لم يرق لهم أن يعيش شيطان بين ظهرانيهم.

قالوا: إن أمّ أرود ولدته وهي تقف على أصابع قدميها، وتتعلق بغصن شجرة، فسقط أرود على يديه فخلقت لديه تلك النزعة للمشي عليهما. لم تحظ هذه الرواية بكثير من المصدقين، بل رددوها كنوع من الفكاهة يتندرون بها في مجالسهم. أما الحاج رمزي، إمام المسجد، فقد قال: بل أرود طفل مبارك، خصه الله بهذه الملكة ليتميز عن بقية الأولاد. لذلك فإن بعض الأهالي يرون مسحة من القدسية في أرود، ويتبركون به. أمّا سليمان الأهوج، فهو يصر على أن أرود يمشي على قدميه، لكن أعينهم هي التي سحرت فيرونه وكأنه يمشي على يديه. أمّا الجدة فقد ماتت قبل

أن تصدق أن أرود يمشي على يديه.

أرود لا يرى الأشياء كما نراها! لا تنسوا أنه يمشي على يديه: فالكرسي له أربعة أعمدة وسقف من خشب، الباب يدفع بالقدم، والشجرة لها جذع وأغصان تتدلى إلى أعلى، أمّا رأسها فهو مجهول لأرود لأنه لا يمكن أن يراه. السماء تقع بعيدا في الأسفل، أما سطح الأرض فهو أعلى ما يمكن لأرود أن يراه. يرى بطن الحمار كما نرى نحن ظهره، ولا يميز بين ما ارتفع من البنيان وما انخفض، فسطح الأرض هو غاية ما يراه. يرى الدجاجة والفأر ولا يرى النسر والصقر!

أعلى ما في الناس أقدامهم، أما رؤوسهم فهي تتدلى إلى أسفل! تلك الأقدام التي تلتصق بالأرض، وتنطلق من مكان إلى آخر مثيرة كما من الغبار تغطي يدي أرود وأحيانا وجهه. هو لا يعرف من الناس إلا أقدامهم، تلك الأقدام التي تميز كل شخص عن الآخر في القرية. فالأقدام أحجام مختلفة، فأقدام الرجال تختلف عن أقدام النساء، ومن الأقدام ما هو كبير وعريض ومنها ما هو صغير مفلطح ومنها ما هو رفيع هزيل.

لقد كون أرود علاقة مع الأقدام لأنها أقصى ما يراه، فهو لا ينظر إلى الأعلى إلا نادرا. لكن هذه الأقدام عادة ما تُغطى بأحذية. أحذية ذات أشكال وأنواع مختلفة: فمنها ما يظهر جزءا من القدم، ومنها ما يغطيها حتى الكعبين، منها الأسود والأحمر والأبيض، منها الرخيص، ومنها ما صنع من الجلد الثمين. ولهذه الأقدام رائحة مميزة قد اعتادها أرود حتى استطابها رغم نتانتها.

فأرود يعلم كل حذاء في القرية، فهو يميز الناس من شكل أحذيتهم

ورائحتها. إن أقصى ما يرى هو الحذاء، لذلك فهو محور العالم لديه. هذا الارتباط الوثيق بين أرود والأحذية جعل أرود يضفي على الحذاء نوعا من القدسية؛ فالحذاء هو أسمى شيء بالنسبة له. لذلك فقد كوّن علاقات حميمة مع الأحذية، فإذا أحب حذاء لم ينم الليل وهو يفكر بجماله ويشتم أريجه!

هو أبدا لم يعشق أحذية النساء ولم يتق إليها. بل أحب الأحذية الكبيرة الثقيلة، فأعظم حذاء عنده وأكثرها قدسية هو (البسطار). لقد عشق البسطار ليس لعظمه وثقل وزنه وتميّز رائحته فحسب، بل أيضا لأن الركلة به مؤلمة جدا. لقد اعتاد أرود أن يركل بالأحذية – بقصد أو بغير قصد – حتى أنه استطاب الركل، وأصبح ألم الركل هو أعظم شهوة يستلذها أرود. لذلك هو يدور في أزقة القرية يتتبع الأحذية لعله ينال ركلة تضيف ندبة أخرى إلى وجهه، وللناس فيما يعشقون مذاهب!

لقد أحب أرود الأحذية وقدسها، حتى أنه تعلم كل لفظة تدل على الحذاء بكل لهجات العربية، رغم ضعف معرفته وقلة علمه؛ فهو لا يعلم من الزهور إلا أشواكها، ولا من الأثواب إلا أطرافها. لكنه أحصى كل الألفاظ التي تدل على الأحذية، وأكثر ما شد انتباهه هو كلمة (بسطار) والتي علم أنها أيضا تعني (بيادة)[١٢]، حتى أن الناس أطلقوا عليه (عبد البسطار) ولكنه كان يحب أن يلقب نفسه بِـ(لاعق البيادة).

لا عجب في هذا اللقب، فقد اعتاد أرود أن يحيي الناس عن طريق حك أنفه بأحذيتهم، فتلك المصافحة في عرفه. أما إذا أحب شخصا

١٢ البسطار باللهجة المصرية.

فقد كان يقبل حذاءه، وإذا أراد التحبب والتقرب من أحد فإنه يلعق الحذاء. وبالطبع، فإن أكثر ما كان يلعق هي البساطير، فهي بالنسبة إليه معيار محبته للناس، فأصحاب البساطير لا يكتفون بركله بل أحيانا يلقونه أرضا ويضغطون ببساطيرهم على رأسه، فأي متعة أكبر من هذا وأعظم!

الألم عند أرود متعة، والذل والمهانة إكراما وتبجيلا. هكذا انقلبت الموازين عند أرود، فأصبح الحق باطلا والباطل حقا، والجبان شجاعا والكريم شحيحا.

لقد كانت أعظم مناسبة عند أرود ليس يوم العيد، ولكن يوم يقتحم جنود الاحتلال بلدته! فهو لا يرى إلا تلك البساطير الثقيلة تجوس أطراف القرية، تركل الأبواب بشدة وتثير كما كبيرا من الغبار. ما إن يلج الجنود القرية حتى يخرج أرود راكضا على يديه لاحقا بهم، فيركله الجنود بشدة فيتحسس طرف البسطار برأسه ثم ينهض ويلاحقهم، علّه ينال ركلة أخرى أو يستطيع أن يتعلق بأحد البساطير ليمارس طقوس لعقه.

يدور أرود في الحارات وفي شوارع القرية المغبرّة يبحث عن أصدقائه. يزور بيت أبي الفيلات، فأبو الفيلات له قدم عريضة ويلبس حذاء جلديا ذا رائحة مميزة، وقد توشح بالمسامير التي تحيط أطرافه وتعطي لركلاته شعورا خاصا يعشقها أرود. وابو الفيلات بدوره، يرى أرود مصدرا للمعلومات عن أهل القرية، فهو يريد أن يعرف كل كبيرة وصغيرة من أخبارهم.

حضر أرود يوما وأخبره أنه رأى ولدا صغيرا يدفع أباه بقوة نحو

مدرسة القرية حتى أدخله إليها ودخل هو وراءه. فهم أبو الفيلات أن ذاك الشخص كان يقود ابنه إلى المدرسة خلافا لرغبته، فهو يحرص على أعلى نسبة من الأمية في القرية، وإلا كيف سيجند أكبر عدد من العمال ليعملوا أجراء في المستوطنة القريبة! ثم أخبره أنه رأى رجلا يلبس حذاء باليا ويلتقط حبات القمح من الأرض ويضعها في كيس. فعلم أبو الفيلات أن هذا الرجل يبذر القمح في أرضه، خلافا لسياسة التي تقضي بالحصول على الخبز من خلال الحاجز العسكري.

وقد حضر أرود بخبر مهم لأبي الفيلات، فقد رأى صخرة تلعق أطراف سكين في يد ولد – رأس الصخرة تدفع السكين بعيدا ثم تعود السكين إليها معانقة جانبيها الأملسين، فعلم أن هذا الولد يشحذ سكينا، فتدخل أبو الفيلات ليمنع هذه المهزلة، فكل سكين في البلدة يجب أن تخضع لمراقبة الحاجز العسكري الذي يضمن أن تكون قد تثلمت، فأهل البلدة ليسوا بحاجة للسكاكين الحادة فهم نادرا ما يشترون اللحم.

جزار القرية، نادر الأعمش، لا يقوم بالذبح إلا في الأعياد، لكنه يرفل في أثواب من الثراء لا يعرف مصدرها. ولأرود مع الجزار علاقة متينة، فهو يلبس ذاك الحذاء الغليظ الذي ارتوى بدماء ذبائحه، فأصبح قاني اللون ذا عبق يميزه أنف أرود الملتصق بالأرض من بعيد. فأرود يعشق رؤية البقرة وهي تطير حتى تلتصق بالأرض، ثم تمد عنقها إلى سكين الجزار وترشق الجزار بالدماء، ثم تحاول رفسه بيديها ورجليها حتى تهدأ حركتها، ثم تسقط إلى أسفل وتتعلق في كلّاب وتفتح شقا في جلدها، وتبدأ بضرب يد الجزار بنصل سكين حادة حتى يطير جلدها إلى الأرض وتصبح كتلة من اللحوم.

هكذا حكى أرود قصة ذبح البقرة لحكواتي القرية، والغريب أن الحكواتي كرر القصة كما سمعها من أرود، والأغرب من ذلك أن بعض أهالي القرية صدّقوا الرواية وكرروها كما سمعوها ثم اقتنعوا أن البقرة تطير!

وللحكواتي علاقة مميزة مع أرود. فأرود هو مصدر جميع قصصه التي يتغنى بها أمام أهل القرية. والحكواتي هو مصدر المعلومات الوحيد لأهل القرية، فالحاج رمزي، إمام المسجد، لا يسمح لأحد غيره بنشر الأخبار في القرية ويسمي ما عداها إشاعات.

حدَّث أرود الحكواتي عن الطيور التي تهبط مسرعة إلى أسفل ثم تختفي بعيدا في السماء، وعن رائد الذي يزرع الشوك ويلقي الحجارة في أرض الوقف! وعن ذاك الرجل الغريب الذي طار من أسفل الجدار المحيط بالقرية حتى ارتطم بالأرض، ثم أن هذا الرجل، بفعل خيال أرود وما يضيفه الحكواتي على ما يسمعه من أرود، أصبح سبب كل مشكلة تقع في القرية!

لم يكن الرجل غريبا، فهو أحد أبناء القرية الذين غابوا في سجون الاحتلال لمدة طويلة، ثم عاد ليقفز عن الجدار بعد أن منع من دخول قريته. لكن أرود لم يتعرف على حذائه الرقيق ولم يذق طعم أي ركلة منه، فاعتبره غريبا، وهكذا قال الحكواتي، وهكذا كرر معظم أهالي القرية.

قام الرجل ليحرث أرضه ويزرعها بالأشجار، فقصَّ أرود على الحكواتي قصة الدمار الذي يحدثه الغريب بالأرض، وطبّل الحكواتي بذلك وزمّر، حتى أن بعض أهالي القرية هبوا إلى الرجل فأخرجوه من أرضه.

لم يعجب الرجل الغريب حال أهل القرية المزري، وفقرهم المدقع، وذلهم وهوانهم. حاول أن يرفع من هممهم وأن يحثهم على إعمار بلدتهم، لكن أرود كان له بالمرصاد، يتحسس الأرض من ورائه ويسرع الخطا ناقلا كفيه بسرعة الريح إلى أبي الفيلات والحكواتي.

حث الغريب أهل بلده على تنظيف قريتهم، وإزالة القاذورات منها. لم يرق هذا لأرود الذي اعتاد أن يشتم هذه القاذورات ويقتات عليها. أخبر الحكواتي أن أهل القرية يرمون خيرات بلدهم إلى الخارج ويفسدون ويدمرون. ردد الحكواتي هذه المقالة، حتى أن بعض من أزال القاذورات صدق الرواية، وبدأ يترحم على أيام كانت الشوراع تعج بها!

لم يفتّ هذا من عضد الغريب ولا من همته، فبدأ يحث الأهالي على حفر بئر يَسْتَقُون منها الماء بدل اعتمادهم على المياه التي يتحكم بها الحاجز العسكري. هب الناس لحفر البئر، لكن أرود شعر أن سماءه تغزى، وأن تلك الأرض العالية تنتهك حرمتها. حمل النبأ إلى أبي الفيلات، الذي لم ير بدا من الاستعانة بجنود الحاجز العسكري ليوقفوا حفر البئر. دخل الجنود يدوسون الأرض وأرود يتعقب بساطيرهم بلهفة.

أطلقوا النار وفرقوا الجمع، واستشهد أحد شباب القرية على أيدي الجنود. حلف أرود أنه رأى الشاب وهو يضرب الجندي بقسوة، ضرب بخده على كفه، ثم قام وضرب برأسه قبضة الجندي وببطنه وظهره بسطار الجندي، ثم دفع بصدره فوهة بندقية الجندي، لقد كان الجندي يدافع عن نفسه أمام هجوم الشاب. هذا ما رأى أرود وهذا ما روى.

وعندما رأى أرود الجنود يحرقون خيمة لإحدى العائلات على طرف

القرية، أقسم أن النار خرجت من داخل الخيمة وأن الجنود حضروا لإطفائها، وعندما أخرجت جثث الأطفال المتفحمة من داخل الخيمة، لم يرها أرود ولم يشم رائحتها، لأنه كان قد تبع بساطير الجنود يلعقها ويستمتع بشذاها!

هب الناس يدافعون عن كرامتهم، واحتشدوا في ميدان القرية. وقف أرود – على يديه طبعا – يرقبهم، وأقسم للحكواتي أنهم عدد قليل، فهو لم يرَ إلا القليل من الأحذية التي ليس بينها بساطير، فمعظم أهالي القرية قد أحفاهم الفقر.

لم يرَ أرود إلا قدمي رائد وهو يقف على منصة عالية يحرض الناس، ورأى وجه الحاجة خضرة تطل من بعيد من عليتها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة غابت عنها منذ سنوات، رأى تينة تصعد بجسدها إلى الأرض تداوي الجياع الذين أنهكهم الوقوف، لكنه لم ير الحفاة الذي تجمعوا يهتفون للحرية والانعتاق. ردد الحكواتي رواية أرود، لكنه لم يقنع أهل القرية هذه المرة الذين ازداد عددهم، وعظم غضبهم، حتى أن أبا الفيلات، ومعه الجزار، اضطرا للهرب ناحية الحاجز العسكري واختفيا فيه. أما أبو رزق فلم يعد يردد أخبار الماضي، فقد جلس أمام دكان سليمان الأهوج يبشر الناس بواقع جديد.

احتفل أهل القرية وانتشوا بهذا النصر السريع، ونهضوا ليعمروا قريتهم ويزرعوا أرضها. بدأوا بحفر البئر وإصلاح البيوت، مهدوا الطرق وشرعوا ببناء مستوصف لعلاج المرضى، أرسلوا أولادهم إلى المدرسة التي أصلحوها ورصفوا ساحاتها. أمّوا المسجد واستمعوا إلى الحاج رمزي الذي وقف فيهم واعظا مبشرا بعهد جديد. ثم بدأوا ينظرون

إلى ذاك الجدار الذي يخنق قريتهم، وتطلعوا إلى إزالته والخلاص منه.

أمّا أرود، فقد انتصب واقفا على رجليه، في اليوم التالي لخروج أبي الفيلات. تجول في طرقات القرية شامخا قامته ناظرا يمينا وشمالا، يتحسس طريقه ويتعرف على أرجاء بلدته التي بدت له مكانا غريبا مختلفا عما سبق. بدأ أرود يشتم الزهور بدل الأحذية، ويرى السماء بنجومها وقمرها، ويرنو ببصره الى الطيور المحلقة في الفضاء، ويرى الأشجار الخضراء الباسقة. بدأ يتنسم رائحة الحرية بعيدا عن نتن النعال.

بدأ أرود ينقل حكايات جديدة للحكواتي، رددها الحكواتي، لكنها لم ترق لكثير من الناس الذين اعتادوا على حكايات أرود المعكوسة، فعاد الحكواتي يردد الحكايات القديمة بعد أن ألبسها شيئا من الواقع الجديد.

لم يَطُل ربيع القرية إلا بقدر ما انتصب أرود على قدميه! فما أن اقترب أرود من الحاجز العسكري يوما، حتى اشتم رائحة البساطير. تحركت فيه غريزة لعق البساطير التي شب عليها، فما كان منه إلا أن استدار ومشى على يديه ووصل الحاجز العسكري.

هناك مارس طقوس عبادته في لعق تلك البساطير النتنة، وأحس بلذة الذل التي افتقدها، وانتشى فرحا وهو يرى سطح الأرض قريبا من وجهه، وعاد ليرى الدنيا كما اعتادها، وشعر أنه تخلص من كابوس سيطر عليه برهة قليلة وزمنا عارضا.

هكذا عاد أرود إلى بلدته، عاد يمشي على كفيه. وحمل كثيرا من أخبار العسكر إلى الحكواتي الذي رددها ثم رددها. والغريب أن بعض أهل

القرية صدقوا هذه القصص واجتمعوا على الحكواتي وابتهجوا لسماعها.

دخل العسكر القرية، طمروا البئر وهدّموا المدرسة، أفسدوا الطرق وأهلكوا الزرع، قتلوا الغريب وحرقوا جثته، ثم تبعهم أبو الفيلات ونادر الأعمش وجلسوا على أنقاضها. أما الناس فقد تحلقوا حول الحكواتي يستمعون حكايات أرود عن العسكر.

وعاد أرود يمشي على يديه!

وأرود ليس لاعبا رياضيا ولا يؤدي حركات بهلوانية. أرود ليس معاقا فله رجلان قادرتان على المشي مثله مثل بقية البشر. لكنه يمشي على يديه ... فعلا يمشي على يديه!

عاد الناس ليصوغوا إشاعات جديدة عن سبب مشي أرود على يديه، لكن أحدهم أصر على أن أرود يمشي على قدميه وبقية أهل القرية هم الذين يمشون على أيديهم.

****

(٦)

رائد

خرج رائد مبكرا في ذاك الصباح على غير عادته، فمنذ أن نضبت الأشغال في قريته ومحيطها، اعتاد أن ينام حتى الظهيرة، حتى أنه لم يعد يذكر الأشعة الذهبية التي تطرق الأبواب الشرقية، وتتسلل من أقواس النوافذ مظهرة ركاما من الغبار العالق في الهواء. لم يعد يحاول أن يعد ذرات الغبار ولا أن يلاحظ حركتها صعودا وهبوطا. فعندما ينهض تكون الشمس قد استدارت حول الأفق وبدأت تهبط غربا معلنة عن مغادرتها.

هبط رائد من بيته، الذي يقع غربي القرية بعيدا عن بيوتات القرية الأخرى، متئدا ينظر يمينا ويسارا عله يرى أصحابه الذين اعتاد مرافقتهم إلى العمل في الماضي. لم يرَ أحدا. وتذكر أن محمدا هاجر إلى أمريكا منذ عامين، وعاصما رحل عن القرية بعدما يئس من إيجاد عمل، أما سليم فعاطل عن العمل مثله. واستعرض في ذاكرته الكثير الكثير من أقرانه، جلهم قد غادر القرية إلى غير رجعة، ومن تبقى، إما أنه عاطل عن العمل أو يعمل لدى أبي الفَيلات.

أما رائد فقد رفض العمل مع أبي الفيلات رغم كل الإغراءات. فأمّه، الحاجة فوزية، تلومه دوما على عدم عمله، وتحثه للذهاب للعمل عند أبي الفيلات، لكنه دائما يوضح لها أنه يفضل الموت جوعا على العمل عند شخص بصفات وأخلاق هذا الرجل. في الليلة الماضية ألحت الحاجة فوزية على ابنها أن يخرج للعمل واضطر أن يقول لها:

– حاضر يا أمي، سأذهب في الصباح للبحث عن عمل.

وها قد حضر الصباح، وخرج رائد قبل أن تحضر الشمس مبشرة بيوم جديد. ولكن أين سيذهب؟ وأي باب سيطرق؟ فالقرية – حالها حال معظم القرى في فلسطين – محاطة بالجدر من جهاتها الأربع، والأراضي الزراعية التي هي على مرمى البصر بعيدة المنال يستحيل الوصول إليها، والوصول إلى المدينة لا يتم إلا عبر الحواجز العسكرية، وأي ذل أكبر من هذا وأدهى؟ وقد وصل إلى المدينة فيما مضى، لكنه لم يجد حالها أفضل من جاراتها القرى، فلا سبيل إلى عمل إلا بشق الأنفس.

نظر رائد إلى الحجارة التي سقطت من السلاسل الحجرية على جانبي الطريق، وتبعثرت على أطرافها، منبئة أن قلة هم من يمرون منها. ثم تطلع إلى أشواك الخرفيش الجافة، تقف هناك وكأنها تحرس المكان وتمنع الدخلاء من التقدم، وقد علقت بها الكثير من الأكياس البلاستيكية البالية التي حملتها الرياح إلى ذاك المكان الكئيب. أين سيذهب رائد؟ وإلى أين سيمضي؟ هل يعود لأمّه ليقول لها لم أجد عملا، أم يطرق باب أبي الفيلات ليستخرج له تصريحا ليعمل في تلك المستوطنة التي تربض على أراضي قريته؟

وقف رائد لحظات ودعا ربه قائلا: "اللهم لا تردني خائبا" وعندها شعر

بالطمأنينة وواصل مسيره يحدوه الأمل بانفراج أزمته.

واصل رائد مسيره يتلهى بأفكار تبعث الأمل في نفسه، وما إن تطرق فكرة محبطة باب عقله، حتى يركلها بعيدا ويعود إلى إيجابيته مسرعا. هذه الروح الإيجابية دفعته ليفكر بصفاء لأول مرة منذ وقت طويل. وفي تلك اللحظة، لمح شجرة الزيتون الكبيرة من بعيد. هذه أكبر شجرة زيتون في القرية، فعِظَم جذعها يوحي أنها عاصرت كثيرا من الأمم وشهدت أجيالا لا تعد ولا تحصى. هذه الشجرة التي يسميها أهل البلدة "البركة" تقع في أرض الوقف الواسعة التي تجاور بيوت القرية من ناحية الشرق. وقد اعتاد المارون من الطريق فيما مضى أن يستظلوا بظلالها الوارفة قبل متابعة المسير.

وها هو رائد يلج أرض الوقف ليستظل بظلال البركة، ولعله ببركتها يجد عملا يخرجه من ضائقته. وما أن وصل أطراف أرض الوقف حتى لاحظ أن الأرض جميعها مكسوة بالخرفيش، وأن الوصول للزيتونة أصبح صعبا. لقد وصل الإهمال حتى لهذه الأرض المباركة، فما عاد أحد يفلحها أو حتى يعتني بأشجار الزيتون فيها. شق رائد طريقه بين أشواك الخرفيش، ساعده على ذلك الندى الذي كسا الأرض في ذلك الصباح الصيفي، فتمايلت أشواك الخرفيش المبللة تحت وقع حذائه إلى اليمين وإلى اليسار حتى أن مساره بدا كطريق يشق غابة كثيرة الأشجار.

وفي تلك اللحظة أحس رائد بإلهام يغزو قلبه. لمَ لا أعمل في أرض الوقف؟ لمَ أتركها للإهمال والضياع، وهي أرض خصبة كانت تمن على أهل القرية من خيراتها كل عام الشيء الكثير؟ إن عائلة الحاج خلف التي كانت تتولى العناية بهذا الوقف، لم يبق منها أحد؛ فالكبار قد ذهبوا

إلى ربهم، أما الصغار فقد تاهوا في صحارى الغربة مثلهم مثل معظم عائلات القرية. لمَ أترك هذا الكنز مهملا، ثم أذهب أبحث عن عمل في مكان آخر؟ لمَ لا أفلح هذه الأرض المشتاقة إلى زارعها، فأؤدي حق الله فيها وأعتاش من أجرة عملي؟

ابتهج رائد لهذه الفكرة، وبدأ يتخيل الأرض وقد غص جزؤها العلوي بأشجار المشمش والبرقوق، وجزؤها السفلي بأشتال الخضار أحمرها وأخضرها، وقد انتصبت البركة بينهما وكأنها تحرس المكان بعين لا تنام. لم يفق رائد من أفكاره إلا وهو يدق باب الحاج رمزي، إمام المسجد.

استقبل الشيخ رائدا بحفاوة، مستغربا حضوره في هذه الساعة المبكرة، فهو قد انقطع عن صلاة الفجر في المسجد منذ أمد بعيد.

وما أن شرح رائد للحاج رمزي فكرته حتى ابتهج ورحب بها، وشجعه على المضي في هذا العمل، قائلا:

– والله منذ زمن بعيد وأنا أتمنى أن يقوم شباب البلدة بعمارة الأرض بدل بطالتهم. اذهب للعمل حالا وخذ معك أربعة أو خمسة من الشباب، لأن الأرض واسعة ولن تستطيع أن تفلحها بنفسك، وبارك الله فيكم.

سأل رائد:

– وهل أستطيع أن آخذ اجرتي على العمل في أرض الوقف؟

أجاب الشيخ:

– ازرعها وخذ نصف المحصول والنصف الآخر يكون للمسجد.

في صباح اليوم التالي خرج رائد وصديقه سليم مبكرين إلى ارض

الوقف، وبدآ العمل بجد ونشاط، فقد شرعا بإزالة الأشواك التي كانت تملأ المكان. وكلما مرّ أحد من أهالي القرية يتوقف ليرى الشابين يعملان مستغربا من همتهما في تنظيف أرض الوقف.

مرّ سليمان الأهوج وطرح تحية الصباح وقال:

- الله يعطيكم العافية.

أما أبو رزق، الذي كان متجها إلى دكان الأهوج، فعقب قائلا:

- صح بدن الشباب، ما هذه الهمة العالية؟ أجركم عظيم عند الله.

وعندما رآهم سالم العلي المعروف بأبي بلاطة، قال:

- لا تنسوا أن تقلموا الزيتونة، هذه بركة البلد.

نظر أرود، الذي وقف جانب البركة واتكأ برجليه عليها، بحنق إلى الشباب الذين كانوا يعملون باجتهاد، وحرك كفيه مسرعا تجاه بيت المختار.

وأخيرا حضر المختار، أبو إياد، وتفقد عمل الشباب وقال لهم:

- الله يعطيكم العافية، لكن الذين يفلحون هذه الأرض هم عائلة الحاج خلف. بإمكانكم أن تنظفوها من الشوك وتزيلوا الحجارة منها إن أردتم.

أجاب رائد:

- نحن استأذنا الحاج رمزي، وأخبرنا أننا نستطيع أن نزرعها ونأخذ نصف المحصول.

هزّ المختار رأسه غير راض وانصرف وهو يتمتم بكلمات لم يفهمها رائد وسليم.

في نهاية اليوم، عاد رائد إلى البيت وهو يشعر براحة – رغم اجهاده – لم يذق طعمها منذ أمد بعيد. واستقبلته الحاجة فوزية بقولها:

– الله يرضى عليك ويوفقك.

ارتسمت علامات الرضا على وجهها، فانقلب ذلك لذة في أعماق وجدانه. ها هو ذا يعمل.... يعمل عملا يحبه.... يعمل في الأرض التي عشقها وأحبها، يَشْتَّم رائحة التراب وتداعب أنامله حباته.

في صباح اليوم التالي انضم إلى رائد وسليم ثلاثة من شباب القرية العاطلين عن العمل، وعملوا بهمة وجد إلى منتصف النهار، حيث جلسوا لتناول طعام الإفطار. نظر رائد بعين الرضا إلى الأرض التي أصبحت نظيفة من الأشواك والقاذورات، ورأى أغصان البركة تتمايل وكأنها انتشت فرحا وبهجة. لكن اختفاء الأشواك، أظهر للعيان كثيرا من الحجارة الكبيرة المترامية في أطراف الحقل، والتي تجمعت من السلاسل الحجرية المتهدمة التي كانت تحيط بحقول القرية، نقلتها سنين من الإهمال إلى داخل الحقول وترامت في أطرافها.

قال رائد فجأة:

– يا شباب، لن نستطيع زراعة الأرض حتى ننظفها من الحجارة.

رد سليم:

– لكن أين سنذهب بكل هذه الحجارة؟ رأيي أن نعمل رجما في الزاوية.

قال رائد:

- الحل أن نبني سلسلة حول الأرض حتى نحميها ونحافظ عليها نظيفة.

عقب سمير، وهو أحد الشباب الذين انضموا للعمل في ذاك اليوم:

- هذا فكرة ممتازة، لنبدأ بالعمل الآن.

أجاب رائد:

- على بركة الله.

بدأ الشباب بوضع العلامات على أطراف الحقل لتحديد مسار السلسلة الحجرية التي سيقومون ببنائها. وما أن انتهوا من تحديد الأرض، حتى ظهر سليمان الأهوج فجأة.

- ماذا تفعلون يا شباب؟

- نريد أن نبني سلسلة، أجاب سليم.

- من أذن لكم ببناء السلسلة؟ سأل سليمان متهكما.

- نريد أن نعزّل الأرض من الحجارة ونحميها من الأغنام. أجاب رائد.

- وما هذه العلامات التي وضعتموها؟

- هذه حدود أرض الوقف. أجاب رائد.

- وهل ستبنى السلسلة داخل الحدّ أم خارجه؟

- على الحد. رد سليم.

- اسمح لي أن أقول لك أن العلامات هذه في أرضي. قال الأهوج غاضبا: وإياكم أن تضعوا حجرا على حجر دون إذني.

قال سمير:

- السلسلة ستخدم أرضك كما ستخدم أرض الوقف، الأصل أن تعاوننا ببنائها.

غادر سليمان الأهوج وهو يصيح بأعلى صوته:

- لن تبنى هذه السلسلة أبدا.

تعجب الشباب من موقف سليمان الأهوج السلبي، فهم حسبوه دائما من أطيب رجال القرية وأكرمهم. وهو يعيش وحيدا بعد أن توفيت زوجته، وهاجر جميع أبنائه وبناته إلى أمريكا. وأرضه تلك التي بجانب أرض الوقف قد عراها الإهمال منذ زمن بعيد، بعد أن كانت مليئة بأشجار المشمش المثمرة.

جلس الشباب تحت البركة، يطالعون غصونها التي بدا لهم أنها أرخت نفسها وتدلت عليهم لتحيطهم برعايتها، وتحثهم على المضي بالعمل وتشحذ هممهم. فهي تحنو عليهم وقد عاصرت أقواما كثرا، وسنين لا تعد ولا تحصى، وهي تعلم كيف أن النفوس الطيبة والعمل الجاد يواجه دائما بالنكران، وتوضع أمامه العقبات والعراقيل. ولكن أنى لهؤلاء الشباب أن يدركوا هذه الحقائق وهم لم يعاصروا من عمرها إلا سنين قليلة.

ها هي ذي شمس الأصيل تعلن انتهاء النهار، فقد احمرّ الأفق وكست الشمس قمم الجبال الغربية بأشعتها القرمزية. وعاد الرجال أدراجهم

إلى بيوتهم بوجوه غير التي أتوا بها ذاك الصباح، فقد علت الكآبة وجناتهم وظهر الغم في عيونهم. لكن رائدا قال بحزم:

- لا تهتموا يا شباب، غدا سأكلم الحاج رمزي، وسنحل المشكلة، وسنبدأ ببناء السلسلة بإذن الله.

وصل رائد ورفاقه موقع عملهم مبكرين، وبدأوا بتجميع الحجارة الكبيرة استعدادا لبناء السلسلة. وبعد فترة وجيزة، أعلن بوق سيارة أبي الفيلات عن وصولها، فهو لا يمر بأحد شوارع القرية إلا ويطلق بوق سيارته ذا الصوت المميز في أرجائها، مخبرا بهبوط ظله الثقيل عليهم، وحاثا العمال إلى الإسراع للركوب كي لا يتأخروا عن العمل عند "المعلم الكبير"؛ ذاك المستوطن الذي سيطر على مساحات كبيرة من أراضي القرية وزرعها بشتى أنواع الأشجار.

وقف أبو الفيلات في الشارع القريب من أرض الوقف، ونظر إليها وكأنه يراها للمرة الأولى بعد أن أزيلت الأشواك منها. وابتسم في نفسه، وقد تخيل أن هذه الأرض الواسعة الجميلة قد تحولت إلى منتجع سياحي يغص بالزائرين من أرجاء المنطقة ويدر عليه دخلا كبيرا.

أطلق أبو الفيلات بوق سيارته مرة أخرى، مقدما التحية للمختار الذي كان يهرول مسرعا باتجاه الشباب الذين يعملون في أرض الوقف، ثم انطلق في حال سبيله.

ما أن وصل المختار إلى موقع العمل، حتى بدأ يقلب الحجارة التي كان رائد ورفاقه قد بدأوا ببنائها ويلقي بها بعيدا، ويركلها برجليه بهستيرية أدهشت الشباب الذين اعتادوا أن يروه يمشي متكئا على عصا ويصلي

في المسجد جالسا على كرسي، غير مخفٍ ضعفه وكبر سنه.

صاح رائد:

– ما بك يا عمي المختار؟ لماذا هدمت السلسلة؟

رد المختار بحنق:

– لا تبنِ شيئا ولا تضع حجرا على حجر، هذه الأرض تفلحها عائلة الحاج خلف فقط منذ زمن آبائنا وأجدادنا، حرام على أي شخص غيرهم أن يدخلها. كل واحد فيكم يعود إلى بيته.

قال سمير:

– لكن، يا أبا إياد، لا يوجد أحد من عائلة الحاج خلف في القرية، جميعهم في بلاد الغربة.

رد المختار:

– سيحضر حسين الحاج خلف الشهر القادم من كولومبيا، هو الذي أخبرني بذلك عندما اتصلت به بالأمس بهاتف أبي الفيلات.

وجم الشباب قليلا، أما البركة فقد هزت أغصانها نسمة من الصبا الغربي فأضفت على الجو روحا كسرت الوجوم الذي علا وجوههم.

وما إن غادر المختار، حتى عاد الشباب للعمل بهمة وبنوا الجزء الذي تهدم، واستمروا في بناء السلسلة الحجرية. وفي ذاك النهار لم يعكر صفوهم أحد. فقد مر أبو بلاطة بعد الظهر ونظر إلى عملهم وأعلن عن إعجابه به قائلا:

- الله يعطيكم ألف عافية.

وفي ذاك المساء دعي الشباب الخمسة إلى اجتماع في بيت المختار، الذي كان احتشد فيه عدد كبير من أبناء القرية الذين نظروا إلى الشباب عند دخولهم بنظرات لم يفهموها، فقد كانت وجوههم تنبئ عن مشاعر من الاستغراب والغضب والاتهام والحنق والحسد، مجموعة مشاعر قلما تجتمع في وجه واحد.

لم يكن أبو الفيلات بين الحاضرين، لكن الشباب لاحظوا وجود نادر الأعمش؛ جزار القرية، والذي يلقبه أهل القرية بالغراب، في صدر المجلس جانب المختار. الغراب هذا ليس من أهالي القرية، وإنما هو غريب قد وصل إليها منذ زمن طويل ويعيش فيها كبقية أبنائها، إلا أن وضعه المادي أصبح أفضل من معظم سكان القرية رغم عدم قيامه بعمل واضح عدا عن بيع اللحم لفقراء لا يستطيعون شراءه. فعادة أهالي القرية إكرام الغريب، وتقديمه على غيره من أبناء القرية، وإعطائه جميع الفرص للنجاح والسيطرة. تلك الفرص التي لو حاول أحد أبناء القرية استغلالها لقوبل بالعنت والانتقاد.

أما الغراب فهو ليس من النوع الذي يحفظ الجميل ويرد الاحسان بالاحسان. فهو يرى طيبة أهل القرية ضعفا، وكرمهم إتاوة يدفعونها اتقاء لشره. وعلى الرغم من أعماله المشينة، فإن أهالي القرية ما زالوا يبدون له الإجلال والاحترام ويقدمونه في مجالسهم على غيره من أبناء القرية! هذا التصرف لم يفهمه رائد أبدا، ولم يجد له تفسيرا.

ما إن دخل الشباب إلى المجلس حتى عمت الفوضى وارتفعت الأصوات وتداخلت، ورغم ارتفاع الصوت إلا أنه لم يكن مفهوما.

استطاع سليم أن يسمع أحدهم يقول:

- لماذا السلسلة؟ أرض الوقف طوال عمرها بدون سلسلة ولا أحد يعتدي عليها.

أما سمير فقد ميز صوت رجل يصيح:

- دخول أرض الوقف حرام، إذا سمحنا لهم ببناء السلسلة سينزل غضب الله علينا.

ورائد ميز صوت أبي بلاطة، ففيه بحة مميزة اكتسبها من تدخينه المفرط لسجائر التبغ التي يلفها بعناية قبل أن يطلق رائحتها الكريهة في أرجاء المكان.

قال أبو بلاطة:

- أنا رأيتهم اليوم عندما أخرجوا جرتين من الأرض، الله وحده يعلم ماذا وجدوا فيهما، يقال أنهما كانتا مليئتين بالذهب.

لم يهدأ الصخب إلا عندما تكلم الغراب بصوته الرخيم:

- يا جماعة، ما لكم وما للشباب، دعوهم يعملون ويعمرون هذه الأرض البور.

استغرب الجميع من كلام الغراب، إذ لم يكن هذا موقفه قبل حضور الشباب. لكنه استطرد قائلا:

- الذهب الذي وجدوه يكون لجميع أهالي البلد. وأنتم تعلمون أنني غريب، فأنا لا أطمع بشيء.

تعالت الأصوات مؤيدة للغراب. فهذا ديدن أهل القرية يسمعون رأي الغريب ويقدمونه على رأي كبارهم.

لم يسفر الاجتماع عن شيء في نهاية المطاف. هكذا اجتماعات القرية يعلوها الصخب، ثم تنتهي كما بدأت دون نتيجة تذكر.

في الصباح حضر رائد وسليم وسمير إلى موضع العمل، أما الشابان الآخران فقد قررا الانسحاب بعد اجتماع الأمس والاتهامات التي كيلت لهم. وقد تفاجأ الشباب الثلاثة أن السلسلة التي بدأوا ببنائها في الأمس قد هدمت وتفرقت حجارتها في أرجاء المكان. أما البركة فكانت أغصانها متدلية كأنها وجه بدا عليه الوجوم.

لم يفتّ هدم السلسلة من عزم الشباب، فقد شرعوا بإعادة بنائها فورا. جمعوا الحجارة مرة أخرى وبدأوا بصفها بعناية وحزم، وعندها تحركت أغصان البركة مبدية نشوتها ومعلنة تأييدها.

بينما كان العمل يسير على أحسن وجه في أرض الوقف كان هناك عمل آخر يدور في القرية.

فقد كتب الغراب في الليلة الماضية عريضة شكوى يتهم فيها الشباب بالتعدي على أرض الوقف دون إذن أهل البلدة، واستفرادهم بالعمل وعدم السماح لأهل القرية الآخرين بمشاركتهم المحاصيل، والتعدي على حقوق عائلة الحاج خلف بزراعة الأرض، وتشكك في نزاهتهم، وتعرّض إلى احتمال وجود كنوز مدفونة في الأرض وأن هدف الشباب من العمل هو الحصول على هذه الكنوز لأنفسهم وإخفائها عن أهل القرية. مرر الغراب العريضة إلى سليمان الأهوج وقال له:

– وقّعها من أهل البلد وسأقوم برفعها للمحكمة في المدينة، لكن لا تخبر أحدا أن لي يدا في هذه العريضة.

نشط سليمان الأهوج في ذلك اليوم على غير عادته، فلم يترك بيتا في القرية إلا طرقه حاملا عريضته طالبا التوقيع عليها. لم يتردد معظم أهالي القرية بتوقيع العريضة فهم معروفون بطيبتهم وسذاجتهم، حتى أن الحاجة فوزية والدة رائد بصمت عليها دون علمها بكنهها. وفي عصر ذلك اليوم خرج مجموعة من الرجال مع سليمان الأهوج باتجاه أرض الوقف وقد أشهروا الوثيقة بأيديهم، وقاموا بهدم السلسلة التي كان قد اكتمل جزء منها وحذروا رائدا ورفاقه من العودة إلى الأرض، وإلا سيقدمون الوثيقة للمحكمة وسيتعرض الشباب للمساءلة وربما السجن.

في تلك اللحظة هبت ريح هزت أغصان البركة بعنف وكأنها تعلن عن غضبها، والتجأ الشباب إلى ظلها ليحتموا من الريح، فسكنت وتدلت أغصانها وكأنها تضمهم إلى صدرها كالأم الرؤوم تضم أبناءها برفق وحنان.

في ذلك المساء وعند عودة رائد إلى منزله لاحظ اكتظاظ طرفي الشارع بأشواك الخرفيش المنتصبة كالرماح، وكأنها معلنة أنها لن تسمح لأحد بإزالتها من الطريق. ولكنه تذكر أن هذه الأشواك سيغطيها الندى في الصباح، فتصبح لينة يمكن أن تدوسها الأقدام دون أن يصيبها أذى.

وفي البيت نصحت الحاجة فوزية ولدها بعدم متابعة العمل في أرض الوقف حفاظا على سلامته، وقالت له:

- نم واشبع نوما في صباح الغد، ما لك وما للشمس التي تطل من الشرق؟ وماذا تريد من الغبار الذي يداعب أطراف النافذة منتشيا بأشعة الصباح؟ نم ملء جفنيك، والله هو الرزاق.

لكن رائدا لم يكن ليتراجع عن اعمار أرض الوقف مهما كان السبب، فقد زاده صلف أهل البلدة وسذاجة بعضهم، والمؤامرات التي تحاك ضدهم، إصرارا على متابعة العمل حتى النهاية، فلا بد للحق أن يسود.

وما أن أعلن الصباح عن قدومه بنور شق طريقه من بين ركام الظلام، حتى نهض رائد ورفاقه للعمل، وبدأوا ببناء السلسلة من جديد، أعادوا الحجارة إلى مكانها حجرا حجرا حتى عادت كما كانت في الأمس. وفي هذه الأثناء، تجمع حشد كبير من أهالي القرية خلف أبي بلاطة أمام بيت الحاج رمزي، وصاحوا محتجين. خرج الشيخ إليهم ليستمع لشكواهم.

قال أحدهم:

- رائد وجماعته يعملون منذ أسبوع ولم ينجزوا شيئا يذكر. يجب أن يستلم العمل في الأرض جماعة غيرهم.

قال آخر:

- لو عملنا نحن في الأرض لكانت الآن تغص بالأشجار.

قال ثالث:

- إنهم يهدرون الوقت ببناء سلسلة؟ ما فائدة السلسلة؟

قال رابع: أين الذهب الذي أخرجوه من الأرض؟

قال خامس:

– هؤلاء ليس باستطاعتهم عمارة الأرض، فليتركوا الأرض لنا نفلحها ونعمرها.

قال سادس:

– ما حاجتنا للزراعة، الزراعة غير مجدية. نحن نريد أن نبني ديوانا في هذه الأرض، يجتمع فيه شباب البلدة ويتسلون ويمرحون بدل جلوسهم في الطرقات.

قال سابع:

– وسنبني ناديا وقاعة أفراح، الزراعة لا جدوى منها.

وقال ثامن:

– يجب أن نقتحم الأرض ونخرج جماعة رائد منها.

هز الشيخ رأسه ثم أوصد بابه خلفه دون أن يتفوه بكلمة. أما الحشد، فقد توجهوا إلى الأرض وقد ازداد عددهم عندما مروا ببيت الغراب، الذي كان يجلس في شرفته التي تطل على أرض الوقف ويرقب الحشد وهو يغزون الأرض ويهدمون ما أُنجِز من السلسلة، ويبعثرون حجارتها في أرجاء المكان.

لم تهتز أغصان البركة في هذه المرة، بل بقيت ساكنة وكأن الأمر لا يعنيها. كاد رائد أن ييأس عندما جلس في ظلها، لكن رسوخها في الأرض دفعه إلى معاودة الكرة مرة بعد مرة.

كان الاجتماع الجديد لأهل القرية في بيت أبي الفيلات. لم يحضره الغراب، فهو وأبو الفيلات ليسا كما يبدو على وفاق، رغم أن تعاونهما

في جلب أهل البلدة للعمل في المستوطنة يبدو جليا للعيان. لم يكن هذا الاجتماع صاخبا كالذي سبقه، لأن لأبي الفيلات قدرة كبيرة في جلب الانتباه إليه فتصغي الآذان لسماعه مرغمة.

قال أبو الفيلات أن رائدا ورفاقه لم ينجزوا عملا يذكر بالرغم من اشتغالهم في الأرض لأيام عديدة، وذكّر أهل القرية أن هؤلاء الشباب ليسوا ممن يتصدر الأعمال في القرية، فلم يُرَ أحد منهم أبدا يدافع عن شباب القرية في أي مشاجرة من المشاجرات الكثيرة التي تحصل مع القرى المجاورة، لذلك يجب إبعادهم عن العمل في أرض الوقف. فهو والشباب الذين يعملون معه سيعملون في هذه الأرض في أيام السبت، وستتحول إلى جنة يؤمها الزائرون من كل صوب وحدب.

وفي يوم السبت، خرج أبو الفيلات وجماعته إلى أرض الوقف فوصلوها عندما كان رائد وسليم وسمير يستريحون في ظل البركة بعد أن أتموا بناء السلسلة حول الأرض. هدم الرجال السلسلة حجرا حجرا وبعثروها في أرجاء المكان. ثم توجهوا إلى البركة بفؤوسهم ومعاولهم وبدأوا يضربون جذعها ، وما أن خرج النهار حتى اقتلعت البركة من القرية!

حضر رائد في صباح اليوم التالي، وتوجه إلى المكان الذي رست فيه البركة لقرون عديدة، ونظر بحزن إليها، فلاحظ أن غصنا أخضر قد شق طريقة من الأرض معلنا حياة جديدة للبركة. رجع رائد إلى أطراف الأرض وبدأ يبني السلسلة من جديد.

****

(٧)

الحاج رمزي

الحاج رمزي رجل صالح. هذا ما يقوله أهالي القرية، وهذا ما يعتقده رائد أيضا، فهو يثق بالحاج رمزي ثقته بوالده، فوالده قد أخبره بأن الحاج رمزي رجل صالح. والحاج رمزي رجل صالح فعلا، فهو لا تفوته صلاة الفجر في جماعة.

وقد اكتسب الحاج رمزي لقب (الحاج) منذ أن كان في ريعان شبابه. وهو ما يزال شابا في العقد الرابع من عمره، لكن هيبته ووقاره يضعانه في مصاف كبار القرية الذين جاوزوا الستين والسبعين. وهو يستحق هذه المكانة، فهو رجل صالح. هذا ما كان يكرره أبو رائد على مسامع ولده، وهذا ما آمن به رائد.

كم تمنى رائد أن يكون مثل الحاج رمزي، فما أن تنتهي الصلاة في المسجد حتى يجلس الكبير والصغير يستمعون لموعظته، ولا يتذمر أحد مهما طالت الموعظة، فكلامه جميل يجذب القلوب ويجعلها متعلقة بالآخرة مبتعدة عن الدنيا ومتاعها، ثم يتحلق الناس حول الحاج يصافحونه ويتمنون له صلاة مقبولة طامعين بدعائه لهم.

لم يتلق الحاج رمزي أي تعليم ديني، فهو بالكاد أنهى شهادة الثانوية العامة. وهو لا يدّعي أنه شيخ، بل يكتفي بلقب الحاج. ولكن، قد انتشر بين أهالي القرية أن الحاج رمزي جامعيٌّ حصل على الشهادات العليا في القرآن والفقه، وهو لا يبذل أي جهد لنفي هذه الشائعات وكأنها وجدت لها في نفسه مكانا.

والحاج رمزي ميسور الحال، وهو كريم، لا يترك مناسبة دون أن يدعو الناس إلى بيته ويمد الطعام ويبالغ في إكرامهم، فتلهج ألسنتهم بالدعاء له. ولم يحصل أن شكك أحد في مصدر ثروته، فهو سليل عائلة عريقة تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي في القرية. وهو لا يخفي أنه باع جزءا من أرضه، ولا يرى في ذلك غضاضة، ما دام قد باعها لمن يعتني بها ويزرعها.

أما سليمان الأهوج، فهو الوحيد من أهالي القرية الذي لا يثق بالحاج رمزي ولا يفتأ يشكك في مصدر ثرائه. وقد بالغ سليمان بنقده للحاج رمزي حتى أنه توقف عن القدوم إلى المسجد وآثر الصلاة في بيته. ولم يترك سليمان أي مناسبة أو مجلسا إلا وحاول الغمز واللمز بالحاج رمزي، لكنه لم يجد آذانا صاغية رغم حب الناس الفطري لسماع هذا النوع من الأخبار. فالحاج رمزي رجل صالح وهو فوق الشبهات، أما الأهوج فله من لقبه نصيب، فهو لم يحرز هذا اللقب إلا بعد أن تورط بالكثير من المشاكل والمتاعب في القرية، جعلت كثيرا من الناس يبتعدون عنه ويشكّون في أمره.

وقد أصبح رائد أكثر الناس عداء لسليمان الأهوج، كيف لا وهو لا يفتأ يشهّر بالحاج رمزي؛ ذاك الرجل الصالح الذي يكنّ له رائد كل

الاحترام. لذلك فإن الأهوج لا يستحق أي احترام ولا تقدير، بل يجب نبذه ورفع عصا العداء في وجهه.

هكذا هو رائد، لا يعرف الحلول الوسط، ولا يعترف باللون الرمادي. فإذا أحب شخصا وثق به وتفانى بالإخلاص له، حتى لا يرى أيا من عيوبه، وإذا كره شخصا نفر منه، وقاطعه ولم ير فيه خيرا قط. لذلك فإن رائدا لم يفتأ يذكر عيوب سليمان الأهوج ويشيعها بين الناس رغم تحذير أبيه له. فقد قال له أبوه أن سليمان الأهوج ليس رجلا صالحا مثل الحاج رمزي، لكنه لم يؤذ أحدا بالرغم من كثرة مشاكله. ورائد لا يخالف والده أبدا، لكنه في هذه المرة لم يوافق كلام والده هواه، فالخير عنده خير خالص، والشر كذلك لا محل للخير فيه.

مرّ رائد بالقرب من المقهى الذي يرتاده كثير من شباب القرية وشيوخها، فمشى مبتعدا عنه كعادته، فهو يرى أن كل من يرتاد المقهى لا يستحق الاحترام. فأقل ما في ذلك المقهى هو إضاعة الوقت، ورواده ليسوا على دين وخلق، أو هكذا يعتقد رائد جازما، فهو لم يدخل هذا المقهى ولن يدخله أبدا، يكفي أن سليمان الأهوج أحد رواده حتى يجافيه رائد. لكنه، في هذه المرة، نظر نظرة خاطفة إلى داخل المقهى، فرأى الحاج رمزي يقف بين الطاولات المتناثرة في أطرافه، وظهرت له صورته بوضوح من بين أعمدة الدخان المتصاعدة من النراجيل والسجائر المشتعلة في أرجاء المقهى. امتعض رائد لرؤية الحاج رمزي داخل المقهى، لكنه سرعان ما وجد مبررا لذلك وقال في نفسه:

- لعل الحاج يعظهم ويأمرهم بالصلاة والابتعاد عن المنكرات.

مضى رائد في طريقه، ومر من أمام دكان سليمان الأهوج. وكعادته في

كل مرة، لم ينظر باتجاهه حتى لطرح السلام. لكن في هذه المرة حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد خرج سليمان الأهوج من دكانه ونادى بأعلى صوته:

- رائد.

اضطر رائد للتوقف والنظر خلفه إلى ذاك العجوز الذي كان حاثا الخطا نحوه. وفكر في نفسه:

- ماذا يريد هذا الرجل مني؟ فأنا لا أطيق رؤيته ولا الاستماع إليه.

بادر سليمان الأهوج رائدا قائلا:

- كيف حالك يا بني؟

- بخير.

- هلا دخلت إلى المحل.

- لا أستطيع، فأنا في عجلة من أمري.

- أريد أن أكلمك بشأن قطعة الأرض التي تمتلكونها جنوبي البلدة.

- ما بالها؟

- أنت تعلم أن هذه الأرض لا تصلح للزراعة ولا تساوي شيئا.

- وما لك بهذا الأمر؟

- هناك من يريد أن يشتريها، وعلى استعداد أن يدفع ثمنا مجزيا لها.

- ومن أخبرك أننا نريد بيعها؟

- لقد تكلمت مع أبيك بشأنها، وهو قد أبدى استعدادا لبيعها، فأنتم بأمسّ الحاجة لثمنها.

- لا نريد بيع شيء، ولا تكلمني مرة أخرى بشأنها.

وتابع رائد سيره قائلا في نفسه:

- يا له من سمسار دنيء يراودني على بيع أرضي.

وفي ذلك المساء، زار الحاج رمزي بيت أبي رائد. وكم سعد رائد بذلك، فلم يسبق للحاج رمزي أن زارهم، فهو لا يزور الناس في بيوتهم، بل الناس هم الذين يبادرون بطرق بابه لقضاء حوائجهم. لذلك فإن رائدا سعد بهذه الزيارة سعادة غامرة، وأحس أن هذا شرف كبير لهم، فهو سيتباهى بهذه الزيارة بين أقرانه. ولم يخرج الحاج رمزي من بيتهم حتى أقنع والد رائد بضرورة بيع الأرض الجنوبية، وقال له أنه ما هو إلا واسطة خير بينه وبين المشتري، ولا يرجو من ذلك إلا الخير للطرفين، وهو نفسه قد باع أرضه في تلك الناحية لنفس المشتري. وافق أبو رائد على بيع الأرض، وتقاضى الثمن الذي حدده الحاج رمزي، فالحاج رمزي رجل صالح ولا يمكن أن يخدع أبا رائد.

وفي الزيارة اللاحقة أقنع الحاج رمزي أبا رائد بإعطائه توكيلا ببيع باقي الأراضي في جنوب القرية. قال الحاج رمزي أن هذه الأراضي قاحلة لا تساوي شيئا وهي قريبة من المستوطنة فلا أحد يستطيع الاستثمار بها، وهو يحاول بيع أراضيه في تلك الناحية، وبإمكانه أن يحصل على ثمن جيد مقابلها، ولذلك فهو يضطر لعقد الصفقة بسرعة كلما لاحت له فرصة جيدة. وهو حريص على أبي رائد وأراضيه، لذلك فإذا كان

وكيله فهو يستطيع الحصول على أعلى سعر له. وطبعا وافق أبو رائد على توكيل الحاج، فالحاج محل ثقة الجميع، وهو أهل لتلك الثقة، وهو يحرص على أملاك الآخرين أكثر من حرصه على أملاكه. هكذا وضّح أبو رائد لرائد، لكن رائدا ليس بحاجة إلى توضيح ولا إقناع، فالحاج رمزي هو مَثَلُه الأعلى.

والحاج رمزي يمتلك وكالات لكثير من أراضي القرية وبيوتها. فمعظم أهالي القرية مغتربون يعيشون في الخارج، وهم لا يجدون أحدا محلا للثقة أكثر من الحاج رمزي. والحاج رمزي محل للثقة، فهو رجل صالح يحرص على صلاة الفجر في المسجد، ويلقي المواعظ بعد كل صلاة.

أما رائد فقد كان سعيدا بهذا، فقد أصبح هناك تعامل مباشر مع الحاج رمزي، وهو سيراه ويزوره ويزورهم في كل حين من أجل إجراء الصفقات. والوجود بقرب هذا الرجل الصالح يشعره بالثقة والطمأنينة، فيا له من محظوظ!

مرت أيام وأسابيع وشهور ولم يعد الحاج رمزي لزيارة بيت أبي رائد. فكل شيء يسير على ما يرام. فعلى ما يبدو، لا يوجد مشترٍ للأراضي الجنوبية. وأبو رائد ليس في عجلة من أمره، فهو ليس بحاجة ماسة لبيعها، وعلى جميع الأحوال فهو لم يفكر ببيعها من قبل.

مرّ رائد من أمام دكان سليمان الأهوج ذات صباح، وسمع أبا رزق وهو يقول:

– لم يكتفِ أهالي البلد بهجرها، والعيش في بلاد الغربة، بل بدأوا ببيع أراضيهم، وحتى بيوت آبائهم وأجدادهم باعوها!

التفت رائد، وطرح السلام على أبي رزق، وعندها ناداه سليمان الأهوج، فاضطر للتوقف. فقال سليمان:

- بكم بعتم قطعة الأرض الشمالية؟

- لم نبع الأرض الشمالية. وعلى فرض أننا بعنا، ما شأنك بذلك؟

- إن المبلغ الذي بعتم به قليل جدا، وكان بإمكاني أن أحصل لكم على مبلغ أكبر، ومن نفس المشتري.

- نحن لم نبع الأرض.

- بل بعتم. وأنا رأيت عقد البيع مع المشتري، وقد وقّع عليه الحاج رمزي بالنيابة عن والدك، فأنا أتعامل مع هذا المشتري باستمرار واطّلع على عقوده.

- أنت كاذب، وأنصحك ألا تكلمني مرة أخرى.

- لقد أردت النصيحة فقط.

- احتفظ بنصائحك لنفسك.

عقّب أبو رزق، والذي يلازم الجلوس أمام دكان الأهوج، قائلا:

- يا بني! ليس أغلى من الأرض. الأرض كالعرض يجب المحافظة عليها، وأنصحك ألا تثق بأحد، وأن تتولى شؤونك بنفسك.

انصرف رائد من أمام دكان سليمان الأهوج غاضبا، وقال في نفسه:

- لم أر في حياتي رجلا بدناءة سليمان هذا، فهو لا يتورع عن الكذب والافتراء. أما هذا العجوز، أبو رزق، فقد خرف ولم يعد يعي ما يقول.

لم يسأل رائد أباه عن موضوع الأرض الشمالية، لأنه لم يكن عنده أدنى شك بكذب سليمان الأهوج وافترائه.

وفي ذلك المساء، زار الحاج رمزي بيت أبي رائد، ودار حوار شيق بين الرجلين. واستمتع رائد جدا بالحوار. فالحاج رمزي رجل مثقف يتكلم بكل الأمور، وكل موضوع يخوض فيه يكون كلامه جميلا مقنعا يدخل القلب ويستقر به. وفي نهاية الجلسة أخبر الحاج رمزي أبا رائد أن هناك مشكلة في الأرض الشمالية، وأن هناك قضية قانونية مرفوعة ضد أحد المزورين الذين زيفوا أوراقا بملكية الأرض. وقال الحاج رمزي أنه وكَّل محاميا ليدافع عن أرضه المجاورة لأبي رائد، وسأل أبا رائد إذا كان يرغب بتوكيل المحامي. أجاب أبو رائد بالإيجاب، فأخبره الحاج رمزي أن عليه أن يدفع مبلغا من المال كأتعاب للمحامي. وأضاف الحاج:

– إذا لم يكن عندك كامل المبلغ الآن فأنا أسدده عنك، وتدفعه لي فيما بعد.

– بإمكاني أن أتدبر أمري، وسأحضر لك المبلغ خلال أيام.

أجاب أبو رائد.

أما رائد فقال للحاج رمزي:

– شكرا لك على اهتمامك بأرضنا.

أجاب الحاج:

– هذا واجبي، ولا شكر على واجب.

وهنا تذكَّر رائد كلام سليمان الأهوج، وقال في نفسه: لا بد أن سليمان له

علاقة بذلك المزور الذي يريد الاستيلاء على الأراضي، يجب أن أحذّر الجميع من شره.

وفي اليوم التالي، خرج رائد في البلدة محذرا من سليمان الأهوج، وأبلغ الجميع أن سليمان يتعاون مع أحد مزوري الأراضي ويقوم ببيع الأراضي شمالي البلدة، كيف لا، وهو أخبره بلسانه أنه مطّلع على جميع أوراق المشتري.

وانتشر الخبر في البلدة انتشار النار في الهشيم، حتى أن الجميع أصبح يشير بأصبع الاتهام إلى سليمان الأهوج. وفي ذلك المساء، وبعد صلاة العشاء، وقف الحاج رمزي واعظا، وحذر من اغتصاب الأرض وبيّن عقوبتها، فوجلت قلوب أهالي البلدة وخرجوا موقنين أن سليمان الأهوج رجل لا يخاف الله.

أما سليمان الأهوج ،فلم يبذل جهدا في الدفاع عن نفسه، فهو لا يهتم بكلام الناس ما دام هناك في البلدة من يبيع أرضه عن طريقه. فكل ما يهمه هو الحصول على تلك النسبة التي يحصل عليها السماسرة عند عقد الصفقات. وأهالي البلدة استمروا بالقدوم إلى دكانه بشكل معتاد، واستمر هو ببيع الأراضي لذلك المشتري المجهول، والحصول على النسبة المتفق عليها دون أي مشكلة.

وشعر رائد أن حمى بيع الأراضي قد انتشرت في أرجاء القرية، وأحس أن كل أهالي القرية قد تحولوا إلى بائعين ومشترين وسماسرة، فهو لا يمر بأحدهم حتى يحدثه عن صفقة بيع لقطعة أرض، ويحثه على البيع ويخبره بأنه سيحصل له على أعلى سعر ممكن.

وقد أحضر أبو رائد المال الذي طلبه الحاج رمزي للمحامي، وعندما سأله رائد عن مصدر المال، قال أنه توسط لبيع قطعة أرض لجارهم عن طريق سليمان الأهوج، وحصل على عمولته!

لم تطفئ مواعظ الحاج رمزي حمى السمسرة في البلدة، فقد خصص معظم مواعظه للتحذير من اكل أموال الناس بالباطل. وعلى الرغم من تأثر الناس بمواعظه، إلا أنهم استمروا ببيع أراضيهم، حتى وصلت العدوى إلى البيوت. فقد باع أحدهم بيته لرجل غريب، وكان السمسار هو سليمان الأهوج. أما رائد فأصبح يشعر أنه الوحيد في القرية الذي لا يعمل سمسارا. وتمنى لو أن كل أهالي القرية بإيمان وأخلاق الحاج رمزي.

الحاجة خضرة كلفت نفسها عناء الذهاب إلى بيت الحاج رمزي، تشكو إليه ضياع بعض الأراضي التي ورثتها عن زوجها رضوان. لكن الحاج رمزي قال لها:

- رضوان على قيد الحياة، وهو الذي يبيع أرضه!

استغربت الحاجة خضرة من كلامه وقالت:

- رضوان مات منذ أكثر من ستين سنة، عندما اقتاده الإنجليز وهو ينزف.

أجاب الحاج رمزي:

- إنه حي يرزق، وقد زارني يوما في بيتي ووكلني ببيع جميع أراضيه، وكما تعلمين فإن أهالي البلدة جميعا يوكلونني ببيع أراضيهم وبيوتهم، وهي أمانة عليّ أن أحملها.

- والعليّة!

قالت الحاجة خضرة بلهفة.

- لا تقلقي، فرضوان لا يفكّر ببيع العلية.

خرجت الحاجة خضرة غير مقتنعة بكلام الحاج رمزي، لكن ما عساها أن تفعل، فالحاج رمزي رجل صالح، وهو لا يخدع أحدا.

توجه رائد صباح ذات يوم إلى الأرض الشمالية، فهي أرض زراعية مزروعة بأشجار الزيتون، وقد حان موسم تقليم الأشجار قبل حراثتها في بداية فصل الشتاء. لاحظ رائد أثناء سيره في الطريق الزراعية كثيرا من المباني التي بدأت تعلو على جانبي الطريق من بيوت وعمارات سكنية وبعض المخازن والمعامل الصغيرة. تألم رائد لخسارة الأراضي الزراعية، وتعجب من إسراع أهالي بلدته لبيعها للغرباء بثمن بخس. أطل رائد على أرضه من بعيد، والتي لم يصلها منذ موسم الزيتون السابق، فهاله ما رأى! لقد اختفت أشجار الزيتون وبدأ بناء يعلو وسط الأرض!

ركض رائد بكل ما آتاه الله من قوة باتجاه أرضه حتى وصلها، وكان قد التقط حجرا وحمله بيده وكأنه يشعر أنه بحاجة لسلاح يدافع به عن أرضه. وصل رائد ووجد هناك مقاول بناء ومجموعة من العمال يعملون بجد ببناء مبنى قبيح مربع الشكل. صاح رائد بالمقاول:

- توقف عن العمل فورا.

أجاب المقاول:

- ما بك؟ ومن أنت؟ ولِمَ تطلب مني أن أتوقف عن العمل؟

– أنا مالك هذه الأرض. أين أشجار الزيتون؟ سأحاسبك على قلعها حسابا عسيرا.

– ألق حجرك واخفض يدك وصوتك، قبل أن أطلب من العمال أن يلقوا بك في أسفل الوادي. قل لي من أنت.

– أنا رائد، مالك هذه الأرض. قال صارخا وقد ازداد غضبه.

– اهدأ يا رائد، لقد باع والدك قطعة الأرض هذه للسيد شعلان، حفيد أبي رزق، إنه ليس غريبا، إنه من بلدتكم.

– لم يبع أبي أي شيء.

– سأتصل بالسيد شعلان وأطلب منه أن يحضر ومعه أوراق البيع.

– لا بد أنها وثائق مزورة، وأنا أعلم من ساعده في تزويرها، إنه حتما سليمان الأهوج.

وما هي إلا ساعة من الزمن حتى حضر شعلان، وطلب من رائد أن يحضر هو وأبوه إلى بيت الحاج رمزي في البلدة.

شعر رائد بالقليل من الراحة عندما سمع اسم الحاج رمزي، فالحاج رمزي سيكون باستطاعته أن يستعيد لهم حقهم بحكمته وصرامته وتقواه.

اجتمع الرجال في بيت الحاج رمزي. دخل رائد إلى بيت الحاج، فأعجب بالحديقة المتناسقة التي تضم أنواعا متعددة من الأشجار والزهور والأحواض والمصاطب، والتي بنيت وزرعت بشكل متناسق يجعلها تشبه قصور ألف ليلة وليلة. وفي داخل البيت الكبير، جلس

رائد في غرفة الجلوس ذات الأثاث الفاخر، وبدأ ينظر إلى الصور التي تحيط بالغرفة، لم يكن بينها أي صورة للحاج رمزي، وإنما كانت تضم صورة كبيرة للمسجد الأقصى، صنعت من الصدف، وكذلك صورا مماثلة للمسجد الحرام والمسجد النبوي. وهناك برواز كبير فيه آية قرآنية كتبت بخط بديع: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا". وقد وُضع عدد من المصاحف في علب صدفية جميلة في أرجاء الغرفة الواسعة.

شعر رائد بالراحة في بيت الحاج رمزي، لكنه بدأ يتكلم بغضب:

- هذا الرجل يدعي أنه اشترى الأرض الشمالية.

أجاب الحاج رمزي:

- نعم، لقد اشتراها بعقد صحيح.

- لكننا لم نبعها.

أجاب الحاج رمزي موجها كلامه لأبي رائد:

- ألم توكلني ببيع الأرض؟

أجاب أبو رائد:

- نعم، ولكن كانت تلك الأرض الجنوبية.

- هل نسيت بسرعة، يا أبا رائد؟ ها هي الوكالة بين يديَّ، لقد وكلتني ببيع العديد من الأراضي بينها الأرض الشمالية.

- لا أذكر.

- يبدو أنك نسيت. هل تظن أني أخدعك؟

– لا أبدا، استغفر الله.

وتابع الحاج رمزي قائلا:

– لقد اضطررت لبيع هذه الأرض، لأننا كنا سنخسرها للمزور. أتذكر القضية التي رفعناها لإبطال التزوير؟ كانت فرصتنا باسترجاع الأرض ضئيلة جدا. وقد حضر السيد شعلان، وعرض علي أن يشتري أرضي وأرضكم المجاورة لها، وهو سيتكفل بإخراج المزور منها. ولقد وافقت فورا لأن عدم بيعها يعني خسارتها، واضطررت لعقد الصفقة بسرعة بينما أنا في المدينة. وكل ما حصل هو لمصلحتك يا أبا رائد، لقد استطعت أن أحصل على حقك في الأرض وأن أخرج المزور بعيدا عن أراضي القرية.

– بارك الله بك يا حاج.

نظر رائد إلى السيد شعلان وقال له:

– بكم اشتريت قطعة الأرض؟ ومتى تمت الصفقة؟

لم يجب الرجل، بل نظر إلى الحاج رمزي وكأنه يستعطفه أن يتولى الإجابة عنه.

أجاب الحاج رمزي:

– لقد حصلنا على مبلغ جيد ثمنا لهذه الأرض الزراعية البعيدة، التي كنا على وشك أن نخسرها للمزورين.

– كم كان هذا المبلغ؟

– عشرة آلاف دينار. أليس كذلك يا سيد شعلان؟

هز شعلان رأسه بالإيجاب وقد بدت علاما ت الدهشة والاستغراب على وجهه.

تابع رائد قائلا:

- فقط! هذا مبلغ قليل جدا لهذه الأرض.

أجاب الحاج رمزي وقد ظهر على وجهه الغضب.

- أنت تشكك بنزاهتي يا رائد. خذ، هذه وكالة أبيك، ولن أبيع لكم شيئا بعد اليوم، وسأترك أرضكم مطمعا للمزورين واللصوص.

- أستغفر الله. لكن، كان قصدي أنه كان بإمكاننا الحصول على مبلغ أكبر لو تريثت قليلا.

- لم يكن بالإمكان الحصول على مبلغ أكبر من ذلك في تلك الظروف.

- احسنت صنعا يا حاج.

قال رائد وقد خالط صوته وعلت وجهه علامات الامتعاض.

أردف الحاج رمزي قائلا:

- نسيت أن أخبركم. عليكم أن تدفعوا للسيد شعلان ثمن نصف محصول الزيتون من تلك الأرض، لأن الصفقة تمت قبل موسم الزيتون وأصبح الزيتون ملكه، وأنا لا أريد لكم أن تأكلوا مالا حراما، فأنت رجل تقي يا أبا رائد ولا ترضى أن يدخل فمك المال الحرام.

- أكيد، سأفعل. أجاب أبو رائد.

تدخل رائد قائلا:

- لكننا لم نحصل على ثمن الأرض يا حاج.

قال الحاج رمزي غاضبا:

- لقد عدت لتشكك في أمانتي يا رائد. أموالك أمانة لدي، هل تظن أني سآكل حقكم، لقد احتفظت بها كأمانة حتى أسدد أتعاب المحامي الذي يدافع عن عدد من قطع الأراضي المزورة والتي تخصكم في جميع أنحاء القرية. أنا أعمل كل هذا وأدافع عن أراضيكم بكل ما آتاني الله من قوة فقط ابتغاء الأجر من الله، ثمّ تأتي يا رائد بعد كل الجهود التي أبذلها لإهانتي والتشكيك بأمانتي.

- أعوذ بالله، لم أقصد هذا أبدا. بل أردت أن أقول أننا سندفع للسيد شعلان من الأموال التي هي أمانة عندك.

- حسنا، ولكن ها هي ذي وكالة أبيك، خذها وتولى أمر الدفاع عن أراضيكم بنفسك. فأنا لا أحب أن اوضع في مقام الاتهام.

تدخل أبو رائد قائلا:

- استحلفك بالله يا حاج أن تحتفظ بالوكالة، ونتعتذر إليك من سوء تصرفنا.

وعند ذلك صدح صوت الأذان من المسجد القريب، فقال الحاج رمزي:

- "لا خير في تجارة تلهي عن الصلاة".

نهض الجميع وتوجهوا إلى المسجد حيث صلوا العشاء واستمعوا لموعظة الحاج رمزي والتي أعادت الهدوء والسكينة إلى أنفسهم.

ولم تمضِ إلا أسابيع قليلة وإلا وقد بدأت الجرافات تحفر في الأراضي الجنوبية وبدأت البنايات تعلو فيها. إنها المستوطنة، تتوسع وتلتهم الأراضي المحيطة بها. لم يقو أحد على الاعتراض أو حتى الاحتجاج، فليس باليد حيلة إزاء مصادرة العدو للأرض، ولكن الشائعات بدأت تنتشر في البلدة انتشار النار بالهشيم: أبو رائد باع أرضه الجنوبية للأعداء، وأدى ذلك إلى مصادرة جميع الأراضي المحيطة.

بدأ الناس ينفرون من رائد ويقاطعونه ولا يكلمونه. وكلما سار في درب، رأى مجموعة من الناس يتناجون بينهم ويشيرون إليه، ويطالعونه نظرات تنمّ عن الشك والارتياب. اضطر رائد أن يدخل دكان سليمان الأهوج ليشتري حاجاته. وكلما دخل رائد الدكان كان سليمان يبادره بالسؤال:

– هل تريد بيع أراضيكم التي في وسط القرية؟

– لا، لا نرغب بالبيع.

– سأحصل لك على ثمن مرتفع، عشرة أضعاف المبلغ الذي دفعه لكم الحاج رمزي.

– قلت لك أننا لا نرغب بالبيع.

– حسنا، ولكن إذا قررتم البيع فالزبون جاهز.

– إن شاء الله.

ذهب رائد للصلاة في المسجد، وجلس ليستمع لموعظة الحاج رمزي، والذي تكلم عن خطر تسريب الأراضي إلى الأعداء، وأن من يبيع أرضه

للأعداء فهو مرتد عن الدين يجب نبذه ومقاطعته. قام الناس ليسلّموا على الحاج رمزي، وقام رائد. ولكن، عندما مدّ رائد يده ليصافح الحاج رمزي سحب الحاج يده بعيدا، وكذلك فعل بقية المصلين. شعر رائد بالإهانة والحزن الشديدين، فهو شديد الحب للحاج رمزي، ولا يعلم أنه اقترف ذنباً فجميع أهالي البلدة قد باعوا جزءا من أراضيهم، وأما الأهالي الذين لا يمتلكون أرضا، فقد تحولوا إلى سماسرة يبذلون قصارى جهدهم للحصول على أعلى نسبة من سعر البيع حتى أن عددا منهم قد ترك عمله الأصلي وتفرغ للسمسرة، وظهرت عليه آثار النعمة.

أما رائد فلم يسبق له أن عمل في هذا المجال، ولم يفكر به قط. ولم يسبق له أن باع أي قطعة أرض في البلدة أو خارجها. كل ما باعه أبو رائد هو ما كان عن طريق الحاج رمزي ودون علمه. فلماذا ينفر منه الحاج رمزي ويقاطعه؟

بدأ رائد بالشك في كل من حوله، حتى بالحاج رمزي الذي كان مثله الأعلى. لقد باع الحاج الأرض الشمالية دون علمهم، فربما باع بقية الأراضي بالوكالة التي كان يمتلكها. أو ربما يكون سليمان الأهوج قد تعاون مع مزوري الأراضي واستطاع تسريب أراضيهم إلى الأعداء، أو ربما يكون أحد السماسرة الآخرين. ربما باع أبوه دون أن يعلم، فلِمَ لا يكون أبوه مثل الحاج رمزي أو حتى مثل سليمان الأهوج؟ ولِمَ لا يكون هو نفسه قد باع الأرض ونسي الأمر! أيعقل هذا؟

سار رائد في طرقات البلدة، ورأى النفايات المترامية على أطرافها، وتابع سيره إلى الحقول، فرأى أشواك الخرفيش الجاف تملأ المكان، ورأى الأشجار وقد تساقطت أوراقها إيذانا بأفول فصل الخريف، فبدت

أعوادا كالحة لا جمال فيها ولا بهجة، وقد علتها الكثير من الغربان التي كانت تنعق بأصوات مرتفعة. وقطع رائد الوادي الذي كان يجري بالمياه العادمة، ومرّ بقطيع من الكلاب الضالة التي تأهبت وبدأت بالنباح عليه. صعد الجبل الجنوبي، والذي كانت قد انجرفت تربته وبانت الصخور قاحلة لا أثر للحياة فيها. وصل رائد إلى أرضهم الجنوبية ورأى البنايات التابعة للمستوطنة تعلو فيها، ثم سار نحو المستوطنة، ورأى شوارعها الواسعة قبيحة كئيبة. نظر إلى السيارات التي يتبعها عمود طويل من الدخان الأسود يسمم الهواء، رأى العديد من الأعداء يسيرون في تلك الأزقة يتضاحكون ويمرحون، لكن رائد لم يعد يعلم ما معنى الضحك، ولم يعد يتخيل أنه سيضحك في يوم من الأيام، ولم يعد يذكر يوما شعر فيه بالسرور... غاب رائد في بطن المستوطنة يقوده الغضب والرغبة في الانتقام.

ذهبت الحاجة فوزية لزيارة ابنها رائد في السجن. لم يأت أبو رائد، فلقد توفاه الله، لأنه لم يحتمل أن يخرج من بيته الذي عاش فيه طوال حياته. لقد بيع البيت، وحضر المالك الجديد ومعه كل الأوراق الثبوتية لملكية البيت. طرق أبو رائد باب الحاج رمزي طالبا مساعدته، لكن الحاج كان مسافرا إلى المدينة، أو هكذا أُخْبِر أبو رائد. عاد أبو رائد ليموت على فراشه من أثر الصدمات المتتالية التي لم يستطع احتمالها. وقبل وفاته أوصى أم رائد أن تلجأ إلى الحاج رمزي، فربما ببركة دعائه سيعود رائد وستعود أراضيهم وبيتهم، فالحاج رمزي رجل صالح فهو لا تفوته صلاة الفجر في جماعة. حملت أم رائد كل هذه الأخبار لرائد في سجنه، لكنه لم يجب واستمر في صمته.

أما الحاج رمزي فقد قام بالناس واعظا بعد صلاة الفجر، فذَكَر الدجال وأن خروجه قد اقترب، فدمعت أعين الناس ووجلت قلوبهم، وعاد سليمان الأهوج إلى دكانه، وعاد كل واحد منهم يبحث عن زبون جديد.

****

(٨)

رزق

تباطأت سيارة الكاديلاك السوداء أمام دكان صغير في شارع نوستراند، في حي بروكلين، في مدينة نيويورك، ونزل منها رجل في العقد السابع من عمره، يلبس قميصا أبيض يحمل علامة شركة بيبسي كولا، والذي يبدو أن الشركة توزعه لترويج بضاعتها، وقد أبرز ضيق القميص كرشا ضخما أمام الرجل الذي يلبس سروالا رسميا وحذاء رياضيا، يجعل هيئته بعيدة عن التناسق، خاصة وأن ذقنه كانت قد طالت وتوزعت على وجهه من غير انتظام، وقد اختلط الشعر الأبيض ببقايا الشعر الأسود، وكأن الشيب غالب الشعر الأسود فغلبه، فبدا الرجل وكأنه عجوز في التسعين من عمره.

نظر الرجل إلى ساعته التي كانت تشير إلى الخامسة والنصف صباحا، ونظر حوله وكأنه يتأكد من أن أحدا لا يتبعه، وخطا خطوتين باتجاه صندوق حديدي ملاصق لباب المحل ومقفل بشكل محكم، وكأنه يضم كنزا ثمينا. تناول الرجل رزمة من المفاتيح معلقة إلى جانبه، وفتح الصندوق وأخرج منه رزمة من الجرائد مربوطة بعناية، ثم أغلق

الصندوق، وتوجه نحو أقفال باب المتجر الحديدي يفتحها.

دخل الرجل مسرعا إلى المتجر وأقفل الباب خلفه، وأزاح بعض الصناديق التي كانت في طريقه قبل أن يشرع بتنظيف المكان حيث تكثر الحشرات في أرجائه. أدار الرجل آلة صنع القهوة بعد أن فتح مغلفا يحتوي على نوع رخيص من البن، وسكبه في الآلة التي سارعت العديد من الصراصير إلى الاختفاء داخلها، والتي كساها الغبار وتراكمت عليها الأوساخ.

أحسّ الرجل بالفخر والراحة بعد أن تأكد من أن الباب قد قفل جيدا من الداخل، وبدأ يحتسي كأسا من القهوة التي أضاف إليها شيئا من السكر وكثيرا من الحليب. رفع رزمة الجرائد ووضعها بجانبه، وقام بترتيب الصناديق التي تحوي أنواعا مختلفة من الحلوى، واستدار إلى الخلف قليلا ليتأكد أن الثلاجة خلفه تعمل بشكل جيد، حيث تحسس علبة من الكولا ليتأكد من برودتها، ونظر إلى صفوف علب الجعة التي ربطت كل ست معا برباط بلاستيكي، يمكّن من حملها معا، ورصت داخل الثلاجة بإحكام. ثم خطا خطوة إلى الأمام بعد أن اطمأن إلى وجود كل ما يحتاجه ليوم طويل آخر، وفتح نافذة صغيرة في واجهة المحل المصنوعة من الزجاج المضاد للرصاص، وانتظر خلفها بصبر حتى ظهر رجل من خلف الزجاج.

قال الزبون باللغة الإنجليزية، وباللهجة السائدة في تلك المنطقة من حي بروكلين:

- صباح الخير ريكي.

- صباح الخير، هذه جريدتك.

رد الرجل البدين من داخل الدكان مناولا إياه جريدة من الفتحة الصغيرة في واجهة المحل، ودار بين الرجلين حوار كان للزبون نصيب الأسد من الكلام، بينما اكتفى ريكي بهز رأسه أو الرد بلغة إنجليزية ركيكة لا تخلو من لهجة عربية تزاحمها حتى أخفت وضوحها، واستعان الرجل مع كل جملة تكلّف بصياغتها بابتسامة مصطنعة، وإدخال تعبير "أنت تعلم" بين كل كلمتين منها. وانتهى الحوار بينهما بقول الزبون:

- اعتن بنفسك.

فرد البدين

- سأفعل.

ارتشف ريكي رشفة أخرى من فنجان القهوة، قبل أن يظهر شبح رجل آخر أتى حاثا الخطا نحو الفتحة في واجهة المتجر. رجع مالك المحل البدين خطوتين إلى الوراء، وكأن وجود هذا الزبون ثقيل الظل بالقرب منه يشعره بالقلق، على الرغم من أنه يفصل بينهما حائط من الزجاج المقاوم للرصاص. وما أن وصل الزبون إلى الفتحة، حتى قال بصوت أجش ينم عن رجل بات يعاقر الخمر طوال الليل حتى تغيرت ملامح وجهه، وأفسد السكر صوته.

- أعطني "ربطة الست علب".

استدار البدين بسرعة وتناول علب الجعة التي يشربها هذا الرجل، فهو فخور أنه يحفظ طلبات زبائنه عن ظهر قلب، وقال:

- تفضل.

- إنس هذه، أعطني "أربعين" بدلها.

أعاد البدين رزمة الجعة ووضعها في مكانها بعناية، ثم انحنى وتناول زجاجة جعة كبيرة سعتها أربعين أونصا من بين عدد كبير من الزجاجات في الرف السفلي للثلاجة، فأصدرت صوت تصادم الزجاجات المألوف لديه، وناولها للرجل بسرعة.

- أعطني زجاجة أخرى وعلبة سجائر.

تناول البدين، زجاجة أخرى وعلبة سجائر، وأعطاها للرجل الذي أطبق يديه عليها وغادر مبتعدا، وعاد البدين خطوتين إلى الوراء وأخذ نفسا عميقا، فقد انقطعت أنفاسه وهو يحبسها تحسبا من شم رائحة فم زبونه السكير.

تناول البدين، أو ريكي كما يناديه زبائنه، دفترا من مكان قريب منه، وتصفح الدفتر باحثا عن اسم الرجل، حيث العديد من الصفحات التي كتبت فيها مبالغ من المال بشكل غير مرتب تحت أسماء وهمية لزبائنه الذين يقرضهم. وهو بالطبع لا يعلم أسماءهم الحقيقية، فيلقب كلا منهم باسم يدل عليه. قلّب الصفحات ونظر إلى الأسماء التي كتبت بخط عربي رديء: الطويل، ذو الشعر، الأصلع، بنت السكرانة، صديقة الحرامي، العجوز الخرفة، أخو النصاب، المطحول، أبو كرش، الأفطس، الذي يشتري البصلة، المرأة البيضاء، الأحمر، سائق الشاحنة، أخت جو، الأعوج، السكران...

- ها هو ذا اسم الرجل.

قال ريكي في نفسه، وسجل تحت الاسم مبلغ أحد عشر دولارا، ثم غير رأيه وشطبها وسجل ثلاثة عشر. فهو عادة ما يضيف مبلغا إلى حسابات زبائنه، ويبرر ذلك أن هذا الزبون أو ذاك سيتوقف عن القدوم للمحل في يوم من الأيام ولن يدفع الحساب، فهو يريد أن يأخذ أمواله سلفا. أما الزبائن المضطرون للاستدانة، فهم يعرفون هذه الحيلة حق المعرفة، لذلك فإنهم يقررون في يوم من الأيام عدم دفع الحساب والانتقال للشراء من محل آخر، والذي سيرحب بهم ويخصص لهم صفحة في دفتره.

حضر زبون آخر وصاح من بعيد:

- قهوة خفيفة وحلوة.

استدار ريكي وصب القهوة في كأس ورقي، وأضاف إليها ثلاث ملاعق من السكر وكمية من الحليب، وأغلقها بغطاء بلاستيكي بعناية، وقدمها إلى الرجل الذي تناولها ورمى دولارا من الفتحة دون أن يتفوه بكلمة.

تمتم ريكي بكلمات تنم عن ازدرائه للرجل الذي لا يبادله الحديث كغيره من الزبائن، ثم انتفض وكأنه تذكر شيئا مهما، وتناول من أحد الرفوف مكنسة جديدة، ووضعها على الأرض بشكل عمودي، بحيث يكون الجزء السفلي منها قريبا من الفتحة التي يناول منها الزبائن بضائعهم. تبسم ريكي عندما نظر إلى المكنسة التي تجثو بجانبه، فهذه المكنسة تجلب له الحظ! أو بالأحرى تجلب له المال الوفير. فهو يبيع المكنسة لجميع الزبائن الذين يحضرون لشراء عدد من حاجياتهم من دكانه! فعندما يجمع ثمن البضائع يضيف ثمن المكنسة إليها، ويناولهم البضاعة التي

يضعها في كيس من الورق أو البلاستيك بعناية، ويترك المكنسة مكانها. جلّ الزبائن لا يلاحظون المبلغ الزائد، أما إذا تنبه أحدهم فهو سيعتذر ويقول له:

– ظننت أن المكنسة لك، وكنت سأناولها لك من الفتحة، فهي كما تعلم لا يمكن وضعها في كيس.

فيقتنع الزبون بهذا الكلام ويكتفي بالقول إنها ليست لي، فيكرر ريكي الاعتذار ويعيد له ثمن المكنسة. إذا، فهذا المكنسة التي اشتراها بدولارين تجلب له العشرات من الدولارات في كل يوم، فيا له من محظوظ!

بعد قليل حضر جو كعادته في كل صباح. وجو هذا رجل أبيض يعيش في منطقة معظم سكانها من السود. وهو ثمل يعاقر الخمر ليل نهار، يشتري حاجاته من ريكي، ويتبادل معه أطراف الحديث. وجو لا يتكلم تقريبا إلا عن حرب فيتنام التي خاضها وهو في ريعان الشباب وما زال يتحدث عنها، ويعاقر الخمر منذ أكثر من أربعين عاما. بادر جو ريكي قائلا:

– صباح الخير.

– صباح الخير جو، كيف حالك اليوم؟

– لا جديد، أريد مزيدا من السم.

قال ريكي وقد علت وجهه ابتسامة تفضح كذبه:

– اعتنِ بنفسك ولا تكثر من الشراب.

- لا أستطيع، أريد أن أنسى.

- تنسى ماذا؟ ألا تكفيك أربعون سنة لتنسى؟

ترنح جو في وقفته وكأنه سيسقط أرضا ثم اعتدل مرة أخرى وقال.

- أنا رجل سيّء، أنا لا أستحق الحياة.

ضحك ريكي قليلا وقال:

- ما هذا يا جو؟ أتريد أن تعيد على مسامعي قصة الحرب مرة أخرى؟

- نعم، لكن أنا لم أقصد أن أقتل أحدا، كانوا يأمروننا بقصف الغابة ويخبروننا أن الأعداء يتحصنون فيها، ولمّا ينقشع الغبار وينطفئ الحريق، لا أرى سوى الجثث المتفحمة للأطفال والنساء. أعطني شيئا من السم وسجله على دفترك.

تناول ريكي زجاجتي جعة، من نوع (بودوايز) سعة أربعين أونصا، ووضعها في كيس ورقي وناولها لجو الذي عبر الشارع بسرعة، دون إعطاء أدنى انتباه للسيارات المسرعة التي أطلقت أبواقها محذرة إياه دون أن تبطئ سرعتها.

صنع ريكي فنجانا آخر من القهوة، ووضعه جانبه قبل أن يتنبه لصوت شاب أسود طويل، يلقبه ريكي بالحرامي، يناديه:

- أسرع، تعالَ بسرعة.

ناول الشاب ريكي جهاز هاتف خلوي قديم، وقال له:

- اخفه بسرعة.

أسرع ريكي بإخفاء الجهاز وناول الشاب خمسة دولارات.

لكن الشاب قال:

- أريد عشرة، هذا جهاز جديد.

- يكفيك خمسة، وإلا خذ جهازك.

- حسنا، أعطني علبة سجائر.

ناول ريكي الشاب علبة سجائر من النوع الرخيص، وانطلق الشاب مسرعا. أما ريكي فقد فتح دفتره وسجل تحت اسم "الحرامي" سبعة دولارات، وعلت وجهه ابتسامة وهو يقلب هذا الجهاز المسروق بين يديه، ونظر إليه وكأنه كنز ثمين، وهو لا يعلم أن هذا النوع أصبح قديما جدا مقارنة مع الهواتف الذكية الحديثة التي لم يسمع بها ريكي بعد.

تبسم ريكي وهو يفكر ببلده لأول مرة منذ فترة طويلة وقال في نفسه:

- يا ترى! هل وصلت هذه الأجهزة إلى بلادنا؟ لا أظن ذلك، فما حاجتهم بها، إنهم ليسوا في أمريكا حيث الحضارة والمدنية. سأحتفظ بالجهاز حتى أعود يوما إلى الوطن وأهديه لابني "شان"، لا بد أنه قد أصبح شابا بعد هذا الزمن الطويل.

قطع حبل أفكاره الزبون الذي يسميه السكران، والذي عاد من جديد وقد استفحل به السكر وضرب الزجاج بقبضته وصاح بريكي:

- أنت أعطيتني جعة فاسدة، تبا لك، أنت عربي غشاش، أنت تقتلني.

- انصرف من هنا.

- لن أذهب حتى تعطيني زجاجتي جعة أخرى، يا قذر.

- حاضر، تفضل.

وناوله زجاجتين جديدتين وعكف على دفتره يسجل مبلغا جديدا تحت اسم السكران، وحسب المبلغ الإجمالي الذي وصل إلى مائة دولار. عندها قال ريكي في نفسه:

- لن أعطيه أي شيء آخر حتى يسدد ما عليه، وإلا سأخسر خسارة فادحة إذا توقف السكران عن القدوم للمحل.

وفعلا كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يرى ريكي السكران لمدة ثلاثة أشهر أخرى، وكان يعزي نفسه قائلا:

- لقد أخذت منه أكثر من ذلك بكثير عندما كنت أزيد في ثمن البضاعة.

وفي ذلك اليوم حضرت "أخت جو" لتسدد ما عليها من دين وتشتري حاجاتها. فقد حصلت على المبلغ الذي تخصصه الحكومة للفقراء لشراء الطعام، وهو ما يسمى ببطاقات الطعام، ويسمح فقط للشخص الذي يحمل البطاقة بشراء المؤونة لبيته، ولا يجوز له أن يستعملها لشراء الدخان أو الخمور أو أي شيء لا يعد طعاما.

تناول ريكي البطاقة بسرعة وخصم منها مبلغ خمسين دولارا بدل الدين، ثم خصم مائة دولارا أخرى وأعطاها ستين دولارا بدلا منها. أخذت السيدة الأموال وهي مسرورة بها، فلا يهمها أن تشتري الطعام لأولادها بقدر ما يهمها أن تحصل على المال لشراء الحشيش. أما ريكي فكان فرحه أكبر، فقد كسب أربعين دولارا دون أن يبذل أي مجهود.

وفي ذلك اليوم أيضا كانت نهاية جو. لقد عاد جو بعد ساعتين للحصول على مزيد من الجعة، ولكنه كان ثملا بعد أن شرب الزجاجة التي حصل عليها في الصباح، وعبر الشارع من أمام السيارات المسرعة التي لم تستطع أن تتجنبه في هذه المرة، فأردته إحداها قتيلا.

لم يحزن ريكي على صديقه جو، ولم يؤنبه ضميره لأنه كان السبب في وفاته، بل حزن على مبلغ الخمسين دولارا التي لم يسددها جو له.

عاد ريكي ليفكر وعلى غير عادته بالأيام التي قضاها في بلاده قبل أن يحضر إلى أمريكا. وتبسم عندما تذكر أيام المدرسة والعصا التي كان يحملها المعلم، ويضربه بها كل يوم ويقول له:

– يا رزق، أنت غبي، لن تفلح في يوم من الأيام.

كان يكره المدرسة، ولا يحب المعلم، ولا يحب حتى اسمه – رزق. لقد كانت أياما سوداء، لا يريد أن يتذكرها. واتسعت ابتسامته عندما تذكر كيف كان يتخيل أمريكا قبل أن يصلها: كان يتخيلها بلادا جميلة جدا ذات شوارع عريضة وبيوت فارهة وأشجار وغابات غناء. وها هي أمريكا أمام عينيه: قبيحة، ذات شوارع مليئة بالحفر، وبيوت صغيرة ملتصقة ببعضها، وأشجار لا ورق عليها معظم أيام العام. ولكن، على كل حال، هو سعيد بوجوده فيها، فهو الآن يركب سيارة، وإن كانت قديمة فهي مريحة، ويمتلك متجرا، وإن كان صغيرا فهو يدر عليه الأموال الطائلة. هو لا يريد أن يعود لأيام كان فيها فقيرا معدما يعيش في قرية أهلها بسطاء، أكبر حلم لدى معظمهم هو أن يغادرها ويصل إلى تلك الساحرة – أمريكا.

حتى زوجته ،أمينة، فهو لم يخترها ولم يحبها يوما، ولم يعد يذكر ملامح وجهها ولا يريد أن يذكرها. وهو يتناسى في كثير من الأحيان أنه ترك عندها ولدا وبنتا صغيرين. لا بد أن (شان) و (تينا) قد شبّا الآن بعيدا عن حضنه وحنانه.

مرت الأيام متتابعة، وريكي يقبع في ذلك المتجر خلف تلك النافذة، لم يتغير شيء، إلا أن الرجل الذي يشتري الجريدة في الصباح توقف عن القدوم أياما عديدة، وظهر في يوم من الأيام أمام المحل وطلب بعض الحلوى، وعندها سأله ريكي عن سبب عدم شرائه للصحيفة. فقال الرجل:

– لم يعد لي حاجة بها، فأنا أتصفحها على شبكة الإنترنت أثناء ساعات عملي الطويلة.

لم يفهم ريكي شيئا مما قاله الرجل، فهو لم يسمع بهذه الشبكة من قبل، فهو لا يمتلك جهاز حاسوب ولم يفكر يوما باقتنائه، لكنه تظاهر أنه فهم مقصد الرجل وقال:

– لا مشكلة سيدي.

وأما زبونه الذي كان يسميه السكران، فقد ظهر بعد ثلاثة أشهر بوجه غير الذي ذهب به. وقال لريكي:

– بكم أنا مدين لك؟

رد ريكي:

– مائة دولار.

- تفضل.

- أتريد زجاجة من الجعة؟

- لا، لا فأنا قد أقلعت عن الشرب.

- لماذا؟

سأل ريكي مستغربا ومستهجنا.

- لقد قضيت في السجن ثلاثة أشهر لأنني كنت أقود السيارة وأنا ثمل، ولا أريد أن أعود لذلك.

- لا تقلق، بإمكانك الاقتراض من المحل.

وتناول ريكي زجاجة من الجعة ومدها باتجاه الرجل.

- لا أريدها، صاح الرجل، لا أريد ذلك.

- هذا يعود لك.

قال ريكي ممتعضا. وتساءل في نفسه:

ما الذي جعل هذا الرجل يعود لدفع المائة دولار إذا كان لا يريد الاقتراض؟

وفي ذلك اليوم مرّ الزبون الذي يلقبه ريكي بالحرامي، وسأله ريكي:

- ألا يوجد شيء جديد للبيع عندك؟ أريد كاميرا حديثة.

- لا، فأنا توقفت عن السرقة؟

- أنا مسرور لسماع ذلك.

قال ريكي وملامح وجهه لا تخفي عدم تصديقه.

ومرت الأيام ثقيلة على ريكي بعد ذلك، فقد لاحظ أن مبيعاته بدأت تقل بشكل ملحوظ، خاصة بيع الجعة التي كانت تشكل النسبة الأكبر من مبيعاته. وخلو متجره من الزبائن دفعه ليفكر بشكل أكبر بحياته الخاصة، بزوجته وأولاده الذين تركهم منذ زمن بعيد. بابنه عبد الفتاح الذي أحضره إلى أمريكا ثم اختفى ولم يسمع عنه شيئا، وبابنته فتحية التي تعيش في أمريكا، لكنه لا يراها بتاتا، وهو منشغل بهذا المتجر الكئيب. فكر بسنيّ شبابه التي هدرت وهو خلف هذه النافذة الصغيرة يتبادل أحاديث تافهة مع مجموعة من السكارى والمدمنين. وكان يتساءل في نفسه عن الحضارة، أين تلك الحضارة التي كان يسمع بها؟ أين حضارة أمريكا؟ فهو لا يرى منها شيئا.

ولأول مرة منذ سنوات، اشتكى من تبقى من زبائنه وتساءلوا عن سبب إصراره على البيع من خلف زجاج واق من الرصاص، مع أن معظم المتاجر في شارع نوستراند قد فتحت أبوابها للزبائن مثلها مثل كل المحلات في المناطق المختلفة. لكن ريكي، لا يريد أن يعرض حياته للخطر، فقد تعرض للسرقة والسطو المسلح مرات عديدة فيما مضى. فقد سرقت بضائعه وأمواله أثناء الليل عن طريق فتحة ثقبت في سقف المحل. وتعرض للتهديد بالسلاح مرات عديدة في ساعة إغلاقه للمحل، واضطر بأن يضحي بغلّة يوم كامل حتى لا يردى قتيلا أمام محله، وهو يعرف كثيرين من أصحاب المحلات في تلك المنطقة الذين قتلوا أثناء عمليات السطو المسلح.

وفي عصر يوم صاف جميل من أيام الربيع، سمع ريكي صوتا، أو كأنه

خيل إليه أنه يسمع صوتا مألوفا لديه. فرك أذنيه مرات عديدة ليتأكد من أن ما يسمعه حقيقة وليس خيالا. استمع ريكي جيدا للكلمات تصدح في أرجاء المكان: "حي على الصلاة، حي على الفلاح." هل هو هذا صوت الآذان أم أنه يحلم؟ نعم إنه ذلك الصوت الذي لم يسمعه لمدة تزيد عن عشرين عاما، هو ذلك الصوت الذي كان يسمعه في بلده، ولكن ما الذي أتى بهذا النداء إلى هنا؟

زال عجب ريكي عندما شاهد لافتة ترفع على مبنى مقابل لمحله مكتوب عليها باللغة العربية واللغة الإنجليزية: مسجد الإيمان. وقد لاحظ ريكي أنه كلما ازداد رواد المسجد المقابل له قلّت زبائنه.

وفي أحد الأيام، ظهر الرجل الذي كان يلقبه بالسكران أمام محله، وكان يلبس ثوبا أبيض وقبعة بيضاء، وتكلم مع ريكي بصوت رزين قائلا:

- أنت مسلم، أليس كذلك؟

- نعم.

- لماذا لا تأتي إلى المسجد؟

- أي مسجد؟

- إنه مقابل لمتجرك، فاحرص على الصلاة فيه لأن أجر الصلاة في المسجد مضاعف.

- لا بأس.

ضحك ريكي وقال في نفسه:

- لم يتبق إلا السكران ليعظني ويأمرني بالصلاة! ما هي إلا أيام وسيعود

إليّ يرجوني أن أقرضه بعض علب الجعة.

لكن الرجل الذي أطلق على نفسه اسم عبد الله عاد هو ومجموعة من الرجال، ومنهم الرجل الذي كان يلقبه ريكي بالحرامي، يوم الجمعة قبل موعد الصلاة، وطلبوا من ريكي أن يغلق محله ويحضر للصلاة لأن البيع وقت الجمعة غير جائز. وعدهم ريكي أن يأتي، لكنه فكر في زبائنه الذين سيحضرون خلال هذه الساعة للشراء وسيجدونه مغلقا، وبالخسارة التي ستناله نتيجة لذلك، فقرر عدم الذهاب.

راقب ريكي الرجال وهم يدخلون المسجد، ولم تتغير ملابسهم فحسب، بل تغيرت ملامح وجوههم وحديثهم. ولاحظ مجموعة من النساء تدخل المسجد وتخرج منه، بينهن أخت جو، التي لبست الحجاب فزادها جمالا ورزانة. لم يعجب ريكي ما رأى، فزيادة عدد المسلمين في الحي كان يعني بالنسبة له خسارته بعضا من تجارته. لذلك فإنه كان يتمنى في كل يوم أن يزول هذا المسجد من أمام محله!

بدأ رزق بترتيب علب الجعة في ثلاجته بعناية شديدة عندما حضر عبد الله إلى شباكه الصغير ونادى عليه قائلا:

– السلام عليكم يا أخي.

رد ريكي:

– وعليك السلام، ماذا تريد؟

– لا شيء، إلا أني أود أن أقدم لك نصيحة.

رد ريكي بصوت لا يخلو من السخرية.

- تفضل.

- أنت تعلم أن معظم سكان الحي قد هداهم الله إلى الإسلام، ولم يعودوا بحاجة إلى كثير من بضائعك، وبما أن متجرك مقابل المسجد، فإنه أفضل مكان لبيع البضائع الشرقية واللحم الحلال. فأنصحك بالتخلص من المحرمات التي تبيعها وأن تحول محلك إلى متجر للبضائع العربية، فإن هذه البضائع عليها إقبال شديد حتى من غير المسلمين.

- احتفظ بنصيحتك لنفسك، فأنا قد خلقت مسلما وأعرف الإسلام خيرا من خريجي السجون أمثالك.

انصرف عبد الله وهو يدعو لرزق بالهداية.

عاد ريكي في اليوم التالي، وركن سيارة الكاديلاك أمام متجره، ووجد رزمة الجرائد قد وضعت فوق الصندوق الحديدي، فلم يعد موزع الجرائد مضطرا لفتح الصندوق، حيث أن المنطقة أصبحت آمنة. فتح ريكي أبواب محله ولم يغلق الباب وراءه، وتحسس إحدى علب الكولا ليتأكد أن الثلاجة تعمل بشكل جيد، ورتب علب الجعة داخل ثلاجته والتي لم يضطر إلى إضافة أي شيء إليها منذ أيام. أدار ريكي آلة صنع القهوة وأزاح المكنسة التي كان يستعملها لخداع الزبائن بعيدا، حيث قرر عدم استعمالها بعد أن تعرض للتقريع من أخت جو بالأمس والتي اكتشفت حيلته، فذكرته بأهمية الأمانة، وأن المسلم لا يحتال على زبائنه ولا يسرقهم.

جلس ريكي في متجره وانتظر طويلا، لكن أحدا من الزبائن لم يحضر، ولم ير أحدا إلا بعد صلاة الظهر، حين حضر إليه مجموعة من المصلين

يقودهم عبد الله وأخبروه أنه غير مرغوب به في حيهم. قالوا له:

- إما أن تتوقف عن بيع الخمور وإما أن تغادر حينا، فقد أعلناه حيا خاليا من المخدرات والخمور.

قهقه ريكي بهستيرية وقال لهم:

- انصرفوا من هنا، فأنا مسلم حقيقي، أما أنتم فمجموعة من السكارى، ولن تستطيعوا إخراجي.

- نحن نعطيك مهلة إلى يوم الجمعة، وإلا سنخرجك بالقوة.

لم يعبأ ريكي كثيرا بهم، فهو قد لبث في هذا المتجر لسنوات طويلة ويعلم كل شيء عن تلك المنطقة وعن أهلها. هو يعلم أنهم فقراء لا يستطيعون العيش دون الاستدانة منه، ومعظمهم مدمنو مخدرات أو خمور، وكثير منهم قد امتهن الإجرام. ولم يستطع أحد أن يسيطر على هذه المنطقة من قبل، فقد حاولت الشرطة مرارا أن تفرض الأمن بالقوة فلم تستطع، وحاولت المؤسسات الخدمية والمجتمعية أن تصلح من أحوالهم، وأن تغير واقعهم ولكنها فشلت فشلا ذريعا. وما أن تحرز جهة ما بعض التقدم في حياة هذه الفئة البائسة من المجتمع، حتى يرجع معظمهم إلى سالف عهده ويكون الفشل حليفها. لذلك فلن يستطيع ذلك السكران، الذي سمى نفسه عبد الله، وتلك المجموعة التي تبعته أن تغير الواقع، ولن يجدوا شخصا يصمد بينهم ويوفر لهم حاجاتهم مثل ريكي. لذلك فإن ريكي ظنها سحابة صيف لا تلبث أن تنقشع، ويعود كل شيء إلى سابق عهده.

مرت الأيام ثقيلة على ريكي، ولم يزر محله أي زبون. كيف للزبائن أن

يصلوه وقد وضع أبناء الحي لافتات كبيرة أمام الدكان مكتوب عليها: "قاطعوا محل ريكي." وهؤلاء القوم وعلى الرغم من تفكك مجتمعهم وجنوح كثير منهم نحو الجريمة، إلا أنهم سريعو الاستجابة لدعوات الاصلاح مطيعون لقادتهم.

بدأ ريكي يمل من كثرة الجلوس دون عمل داخل الجدار المقاوم للرصاص، وبدأ يخرج خارج المحل أحيانا، ويجلس على ذلك الصندوق الحديدي الذي كان مخصصا للجرائد. وكلما مر به شخص من أهالي الحي بادره بالسلام قائلا: "السلام عليكم"، بلغة عربية لا تخلو من العجمة، ثم وقف قليلا وقدم له النصيحة بالتخلص من المحرمات في محله وفتح أبواب المحل لأهالي الحي، لكن ريكي أخذته العزة بالإثم ورفض الاستماع لنصائحهم.

لكن جلوسه خارج المحل أعطاه فرصة ليرى قرص الشمس للمرة الأولى منذ أمد بعيد، وأن يستنشق بعض الهواء النقي، وأعاد له بعض الذكريات الجميلة من أيام كان يعيش فيها في بلده. عندها، كان يجلس عصر كل يوم خارج بيته تحت تلك الدالية وارفة الظلال، يحتسي كأسا من الشاي. لقد وجد ريكي نفسه يعترف، ولأول مرة، أن تلك الأيام كانت أكثر متعة من جميع السنوات التي قضاها في هذا المكان البائس في بروكلين.

حلّ يوم الجمعة، ورأى ريكي جموع المصلين يدخلون مسجد الإيمان. أما هو فانزوى داخل محله، وأخذ يتحسس علب الجعة في ثلاجته والتي كانت باردة ومرتبة بعناية، ولكن ليس من زبون يرغب بشرائها.

خرج المصلون من المسجد بعدما استمعوا لخطبة الجمعة، والتي حثهم

فيها إمامهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحثهم على تنظيف حيهم من كل آثار الجاهلية التي سبقت. كيف لا، وقد رأوا بأم أعينهم كيف تغيرت حياتهم وأصبحوا يعيشون بأمان. خرج جموع المصلين وعبروا الشارع باتجاه محل ريكي، عاقدين العزم على أن يوجهوا له نصيحة أخيرة قبل أن يجبروه على إخراج المحرمات من محله. لكن المحل كان موصدا لأول مرة منذ سنين. كان الحي يبدو مختلفا مع ذلك الباب الحديدي المغلق في ساعات النهار.

عاد ريكي إلى تلك الغرفة التي سكنها وحيدا لسنوات طويلة. فرأى كل شيء مختلفا في الحي الذي كان يسكن فيه، فهذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الحي خلال ساعات النهار منذ زمن بعيد!

مرت عدة أيام قبل أن يقرر رزق أن يخرج من بيته، ويقود سيارته إلى مكان بعيد جدا عن حي بروكلين. لقد قرر أن يذهب إلى ولاية فلوريدا والتي تبعد مسافة بعيدة جدا جنوب مدينة نيويورك. لقد كان خائفا ومترددا، فلم يسبق له أن سافر تلك المسافة البعيدة بسيارته. لكنه عقد العزم أخيرا وتوجه جنوبا نحو الطريق العابر للولايات رقم ٩٥. وعندما نظر في المرآة الأمامية رأى خلفه مدينة نيويورك بعماراتها الشاهقة، ورأى تمثال الحرية يرفع شعلته نحو السماء، ورأى أشعة الشمس تداعب أمواج المحيط الأطلسي، فأحس وكأنه يرى نيويورك لأول مرة. كيف لم ير كل هذا الجمال وتلك الحضارة وقد عاش في هذه المدينة الزاهرة أكثر من ثلاثين عاما؟

توجه رزق بسيارته جنوبا ودخل ولاية نيوجيرسي ورأى تلك البيوت الفارهة التي تتوزع بانتظام على جانبي الطريق السريعة، ومرت به

السيارات الحديثة التي كانت تسابق الكاديلاك العجوز وكأنها تنظر إليها بازدراء. رأى الشمس وهي تغرب في الأفق، ثم رآها تشرق في اليوم التالي لتفصح عن حقول واسعة ممتدة مدى البصر، رأى مزارع القطن وحقول دوار الشمس وحقول الذرة التي لا حد لها، مرّ عن كثير من الأنهار، واخترق الغابات التي كانت تكسو الجبال بألوانها الخضراء والقرمزية. رأى تلك البلاد الجميلة للمرة الأولى في حياته، وأحس وكأنه يصل أمريكا لأول مرة. توقف ليشترى بعض الطعام من أحد المحلات القريبة من الطريق، فرأى متجرا ضخما جميلا فيه ما لذ وطاب من الطعام والشراب، فتذكر محله البائس في شارع نوستراند، وتلك النافذة التي كان يبيع منها ليل نهار. فأحس وكأن سنوات عمره قد ضاعت هباء.

وصل رزق إلى مدينة ميامي في فلوريدا، ونزل عند ابن عمته محمد، والذي عاش بدوره في ميامي منذ عشرات السنين. ومحمد – أو مايك كما سمى نفسه – كان يمتلك محلا تجاريا في حي فقير في ميامي، ولم يكن وضعه أفضل بكثير من وضع رزق في نيويورك، إلا أن محله كان مفتوحا للزبائن، ولم يضطر أن يبيع من خلف زجاج واق.

كان محمد قد عاد من بلده- بيت حنينا- بعد زيارة قصيرة لها. لذلك قال لرزق:

– لم تسألني عن أخبار البلد، فقد كنت هناك منذ شهرين.

– نعم، ما الأخبار؟ لا أظن أن هناك ما هو جديد، فالاحتلال ما زال موجودا والأوضاع على ما هي عليه، أليس كذلك؟

- لقد رأيت عائلتك وهم بخير.

- هل رأيت الأطفال؟

- لم يعودوا أطفالا، فابنك (شان) أصبح شابا وكذلك ابنتك (تينا).

- نعم، اعتقد ذلك بعد كل هذا الزمن.

- ألا تريد أن تزور بلدك وعائلتك؟

- ربما، ولكن علي أن أرتب أموري هنا أولا، فأنت تعلم أنني قد خسرت محلي في نيويورك.

- وماذا تريد أن تفعل؟

- أريد أن أشتري محلا هنا في ميامي.

- لكن المتاجر هنا غالية الثمن، ولا أظن أنك تستطيع شراء أحدها.

- وما العمل إذا؟ فأنا لا أستطيع أن أعمل أجيرا وأنا في هذا السن.

- ألا تمتلك أرضا أو بيتا في البلد؟

- أمتلك بيتا، ولكن ما حاجتي بالبيت هناك؟

- قد أصبحت العقارات باهظة الثمن، فبيت حنينا الجديدة قد أصبحت ضمن حدود مدينة القدس وداخل الجدار الذي يحاصرها.

- بكم تباع البيوت هناك تقريبا؟

- لقد بعت بيتي، الذي ورثته أنا وأخوتي عن أبي، بمليون دولار؟

- مليون ماذا؟ هل أنت جاد فيما تقول؟

- نعم.

- لكن بيتي في حي العروض. إنه في البلدة القديمة.

- الأراضي أصبحت غالية الثمن، وأبوك رجل كبير لا يستطيع الاعتناء بها، ومعظم أهالي القرية باعوا أرضهم، فلا تقلق. ما عليك إلا أن تذهب إلى دكان سليمان الأهوج، فهو المحل الوحيد في القرية، وهو سيتدبر الأمر.

****

(٩)

أطفال العَروض

ما زالت أمينة تذكر ذلك اليوم الذي حضر فيه شعلان وتينة إلى بيتها. لم يكن ذلك اليوم الأسعد في حياتها، بل إن حضورهما كان قاسيا جدا عليها، وكان له ما بعده. كان حضورهما إيذانا بغياب ولديها عبد الفتاح وفتحية اللذين كانا في ريعان شبابهما في ذلك الحين. كانت قد قضت عمرها في تربيتهما وتعليمهما حتى يكونا أفضل طفلين في البلدة، لأنها كانت الأمّ والأب معا، فزوجها رزق، كان قد غادرها بعد وقت قصير من مولد عبد الفتاح الذي يصغر فتحية بسنتين. غاب الأب وكان على أمينة أن تلعب دور الوالدين معا، وتعمل جاهدة من أجل توفير لقمة العيش لهما.

لم تسمع من أخبار رزق شيئا من يوم أن غادرها، حتى كان ذلك اليوم الصيفي. جلست أمينة تتأمل ابنتها فتحية التي أصبحت في ريعان شبابها، وهي تصفف شعرها الأسود الطويل الذي يحاكي عتمة الليل، وذلك الجسد الفاره الممتلئ الذي تفتّح باعثا رونق الصبا في تلك الفتاة

التي كانت منذ سنوات قليلة طفلة تلعب مع أولاد حي العروض. ها هي فتحية صبية جميلة، أنهت تعليمها الثانوي، وتستعد لدخول الجامعة في العام المقبل، وقد حضر المختار أبو إياد في الأمس وتقدم لخطبتها لابنه من أمها. لكن أمّها لم تفكر يوما بتزويجها، فهي تحلم أن تراها طبيبة تعالج المرضى وترفع رأسها بها عاليا. قالت للمختار معتذرة:

– فتحية ستنهي تعليمها قبل أن تتزوج.

– وهل استشرتِ والدها؟

– وأين هو والدها، يا أبا إياد؟ فلم نسمع منه شيئا منذ غادرنا قبل خمسة عشر عاما. لو كان على قيد الحياة لما نسينا كل هذه المدة.

– أرجو أن تفكري بالأمر مليا، فابنتك لم تعد طفلة وهي ستتزوج عاجلا أم آجلا.

– لن تتزوج ابنتي قبل أن تنهي دراستها، أنا أريد أن أضمن لها مستقبلا آمنا.

– الأمان بيد الله وحده.

– والنعم بالله. أرجوك يا أبا إياد أن تؤجل هذه الموضوع حتى تتخرج البنت من الجامعة.

خرج المختار غير راض، وصادف في طريقه عبد الفتاح، والذي كان قد جاوز الخامسة عشرة من عمره، لكنه ما زال يستمتع باللعب مع الصبية في العروض. نظر المختار باتجاه الشاب نظرة مطولة أدخلت الرعب إلى قلب عبد الفتاح الذي تساءل في نفسه: ما الذي أتى بهذا الرجل إلى

بيتنا؟ وهل صحيح أن أبي سيحضر من السفر كما أخبرني المختار عندما رآني في المرة الأخيرة؟ وعندها نادى المختار عبد الفتاح وقال له:

- خبّر أمك أن والدك سيأتي قريبا، فقد قابله قريب لي في أمريكا وأكد له أنه سيحضر هذا الصيف.

- إن شاء الله يصل بالسلامة.

- وعندما يحضر ستكون فتحية من نصيب ابني إياد إن شاء الله.

- إن شاء الله يا عمي. رد عبد الفتاح مستغربا من صوت المختار ونظراته الغريبة.

لم يخب حدس المختار أبي إياد، ففي اليوم التالي كانت المفاجأة. صعدت سيارة أجرة تلك الطريق التي تصل وسط البلدة بحي العروض حتى توقفت أمام بيت أمينة. وقفت أمينة على عتبة دارها تنظر إلى السيارة، فقد كان من النادر أن تصعد أي سيارة تلك الطريق الضيقة، ونزل عبد الفتاح ليتفحص الأمر، أما فتحية فقد وقفت خلف النافذة ونظرت من خلالها. أما أولاد حي العروض، الذين اعتادوا أن يلعبوا في تلك الفسحة التي كانت تعلو بيت أمينة، فقد نزلوا مسرعين تاركين لعبة (السبعة حجارة) التي كانوا قد بدؤوها ليتفحصوا السيارة الغريبة التي دخلت حيهم.

تسمرت قدما أمينة بعتبة الباب وانعقد لسانها عندما رأت زوجها رزق ينزل من السيارة. لقد اختلفت هيئته كثيرا، فلم يعد ذلك الشاب الوسيم ذا الشعر الكث، فقد غزا الشيب رأسه وفقد الجزء الأمامي من شعره، فبدا أكبر من سنه. لكن أمينة لا يمكن أن تنسى ملامح زوجها الذي

قال لها يوم وداعه أنه لن ينساها أبدا، وسيبقى مخلصا لها أبد العمر، لكنه كان مضطرا للسفر بسبب الأوضاع المادية الصعبة، وأنه سيعود قريبا ليصنع لهم مستقبلا أفضل. وها هو ذا يعود بعد سنين طويلة. هل ما زال على العهد؟ هل سيهب لهم حبا وحنانا يعوضهم عن سنوات الحرمان؟ أم أن الحياة في بلاد الغربة قد أنسته عائلته؟ فالبعيد عن العين، بعيد عن القلب، كما يقولون.

وكم كانت مفاجأة الجميع كبيرة، عندما فتح الباب الخلفي للسيارة ونزل منه طفلان أشقران صاحبا عيون زرقاء وشعر أشقر أملس يتدلى على ظهريهما، وأنفين دقيقين أنيقين. كم كانت ملابس الطفلين ومظهرهما غريبا بالنسبة لأطفال العروض ذوي الثياب الرثة والبشرة القمحية الداكنة.

وقف عبد الفتاح متسمرا بين أولاد الحي ولم يتلفظ بأي كلمة، أما فتحية فقد جلست على حافة السرير وكأن قدميها لم تعودا قادرتين على حملها. وأمينة، بقيت واقفة في عتبة الباب كاللبؤة التي تحمي عرينها، وأحست كأن شخصا غريبا قد غزاها وأراد أن ينتزع منها بيتها وأبناءها. لقد تبدلت كل المشاعر التي كانت تحملها لرزق في تلك اللحظات القليلة، ومع تلك الخطوات التي خطاها من السيارة عبر حوش البيت إلى أن وصل الباب.

طرح رزق التحية وقال بلسان يتصنع العجمة:

- لا بد أنك أمينة، أليس كذلك؟

لم تجب أمينة ولكنه تابع القول:

- لقد تغيرت كثيرا، لقد كبر سنك. ولكن لا عليك.

وفي تلك اللحظة تجمعت نساء الحي، وانكببن على رزق يهنئنه بالسلامة ويباركن لأمينة عودته. فما وجدت أمينة بدا من أن تفسح له للدخول، ودخل رزق والطفلان إلى داخل البيت الذي يتكون من غرفة واحدة واسعة ومطبخ له باب منفصل.

لاحظ رزق أن الأعين كلها ترقب الطفلين الأشقرين، فقال موضحا الأمر للحضور الذين ازداد عددهم، حيث حضر العديد من الرجال أيضا ووقف جمع من الأولاد يرقبون المشهد من خلال النافذة.

- هؤلاء طفلاي، البنت اسمها (تينا) أما الولد فاسمه شان.

تساءل أحد الحضور:

- وهل هما أولاد حلال أم .....؟

فأجاب رزق دون انفعال:

- نعم، هما ولداي من زوجتي الأمريكية، والتي ماتت في حادث سيارة قبل شهرين، لذلك قررت أن أعود هنا وأحضر الطفلين.

وفي هذه اللحظة دخل المختار أبو إياد وصافح رزق وقبله وعانقه بحرارة وقال:

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك. رد رزق وقد بدا من نظراته أنه لا يتذكر المختار.

- ألا تعرفني؟ أنا المختار أبو إياد.

- نعم، تذكرتك.

- كم عمر ابنتك الشقراء هذه؟

- ست سنوات. أما شان فعمره أربع.

- ما اسم الولد؟

- اسمه شان.

- شعلان!

- لا، اسمه شان؟

- ما شاء الله. حفظهما الله.

لا تحتاج أمينة إلى مزيد من الايضاح ولا التفسير. الأمور جلية بالنسبة لها. زوجها قد تخلى عنها ونسيها، تزوج أمريكية شقراء وأنجبت له طفلين أنسياه عبد الفتاح وفتحية. الآن أدركت أمينة لماذا لم يحضر رزق من قبل، أدركت لماذا لم يرسل رسالة أو يتصل تلفونيا على بيت المختار كما يفعل كثير من المغتربين. لقد أصبح له عالم آخر مختلف عن عالمهم، بنى أسرة أخرى تختلف عن أسرتهم، وتخلى عن كل مشاعر الحب والألفة التي كانت بينهم. ولكن، ما الذي دفع رزق لفعلته هذه؟ لماذا لم يحافظ على العهد كما فعلت أمينة؟ وهل بلاد الغربة تغير الإنسان إلى هذا الحد؟ أو ربما هو على حق. فالرجل لا يستطيع أن يعيش دون زوجة. ربما هو اختار الحلال بدل من أن يقع في الحرام. وما الفائدة من هذه الغربة التي لم تعد على عائلته وبلده بالنفع؟

تقاذفت أمينة الأفكار، وذهبت بها يمنة ويسرة، وتأرجحت مشاعرها،

والتهبت أحاسيسها. لكن النتيجة واحدة: لقد ضاع الحلم الذي كانت تنتظره. عاد رزق، وجاءت اللحظة التي كانت تعدّ لها نفسها في كل يوم وفي كل ليلة. وصلت سيارة الأجرة التي كانت تتخيلها تقف أمام حوشهم كلما شردت بها الأفكار وهزتها المشاعر، وقفت في نفس المكان التي كانت تقف به في أحلامها، وخرج رزق من داخلها وخطا خطواته نحو الباب. لكنه لم يكن فاتحا ذراعيه كما كان في حلمها، بل كان ممسكا بيديه طفلين أشقرين سرق وجودهما الفرحة وأبدلها بغصة غزت قلبها. ليته لم يعد، ليت الحلم الجميل بقي حلما ولم يتبدد!

لم تستمع أمينة لنصيحة النساء اللواتي حرضنها على مغادرة بيتها والتنكر لرزق كما تنكر لها. فهي أصيلة، لا تتخلى عن زوجها وأولادها مهما كانت الظروف، وليبق همها في قلبها، ولتتحمل مصيرها بشجاعة، فذلك على كل حال خير من شماتة الحاسدات بها. وهي وإن كانت خسرت زوجها، فهي لم تخسر أبناءها، فهما كل ما تملك في هذه الحياة، ووجودهما إلى جانبها يغنيها عن كل ما سواهما. وعلى كل حال، فلن يطول مقام زوجها وابنيه الأشقرين طويلا، فمن اعتاد العيش في بلاد الغربة لا يستسيغ المكوث في البلدة طويلا، فكل الذين عادوا من قبله ما لبثوا أن غادروها.

لقد سبب وجود شان وتينا في البيت الحرج لكل قاطنيه. فالطفلان يتكلمان الإنجليزية ولا يفهمان حتى الإشارة بالعربية. ويبدو أنهما دائما الشكوى، فقد رفضا بشدة استعمال المرحاض العربي الذي كان يجثو على بعد أمتار من البيت، وكان بابه عبارة عن قطعة من الخيش تتدلى من أعلى إلى أسفل. ولم يكن بإمكانهما الجلوس أرضا حول (الطبلية)

لتناول الطعام بأيديهما، ورفضا الاستحمام داخل الوعاء الحديدي المعد لذلك، وكانت لسعات البعوض مؤلمة لهما تركت علامات حمراء على جسديهما الأشقرين، وقد ضاق رزق ذرعا بشكواهما المستمرة وبكائهما المتواصل. أما عبد الفتاح وفتحية فلم يشعرا أبدا أنهما أخواهما، فقد أحسا أنهما غريبان جدا عنهما، فلا يمكن لهذين الولدين ذوي الملامح الغريبة أن يكونا أخويهما. لم يحاولا التقرب منهما على الرغم من الإلحاح المستمر من رزق، لكن المشاعر لا يمكن أن تشترى ولا أن تفرض.

لقد كان موقف أمينة من الطفلين صادما حتى لها نفسها. فهي لم تشعر بتاتا بالكراهية تجاههما، ولم تشعر أنهما غريبان لها، بل شعرت بالعطف والحنان تجاههما كونهما يتيمين، وحثت ابنيها على الاعتناء بهما وملاطفتهما. وهما بدورهما وجداها الصدر الحنون الذي يحنو عليهما، وبدآ يتقربان منها رغم حاجز اللغة.

بعد أسبوع من وصول رزق والطفلين، كان المختار أبو إياد يقرأ الفاتحة مع أبي رزق ورزق في حوش البيت. فقد وافق رزق على زواج إياد من فتحية ووعد بتجهيز الوثائق اللازمة لسفر إياد وفتحية إلى أمريكا بأسرع وقت ممكن. ولم تمر إلا أسابيع قليلة حتى زُفَّت فتحية إلى إياد وتأهب الجميع للسفر. حضرت سيارة الأجرة إلى بيت العروض، وصعد رزق وعبد الفتاح، وصعدت فتحية وزوجها، أما أمينة فقد وقفت على عتبة بيتها تذرف دموعها بغزارة، فقد غادرها ولداها اللذان أفنت عمرها في تربيتهما، أما شان وتينا فقد تعلقا بطرفي ثوبها غير مدركَيْن لحقيقة الموقف.

ضمت أمينة الطفلين إلى صدرها، واللذين بدآ ينطقا بعض الكلمات

العربية ويعتادا على العيش في حي العروض. خاطبت أمينة الطفلين قائلة:

- يا شعلان أنت ابني منذ هذه اللحظة، أحبك تماما مثل عبد الفتاح. وأنت يا تينة، أنت ابنتي تماما كما كانت فتحية. لقد ابدلني الله إياكما عندما غاب عني ولداي، فالحمد لله رب العالمين.

وهكذا، أصبح شان (شعلان) وأصبحت تينا (تينة)، وبدأت حياتهما في حي العروض ومع أطفاله.

لقد نال شعلان وتينة رعاية خاصة ومعاملة مميزة من أطفال العروض، فقد شعر الأطفال أنهما مختلفان، وأن جسديهما الأشقرين ليسا كأجسادهم، وأن روحهما ليست كأرواحهم، فحرصوا على توفير كل أنواع الراحة لهما. شاركوهما بألعابهم، وأعطوهما حق الأفضلية وتغاضوا عن جلّ أخطائهما.

ظن أطفال العروض أن شعلان وتينة سيعلمانهم اللغة الإنجليزية، لكن الحقيقة أنه بعد مضي أشهر قليلة، كان الطفلان قد نسيا الإنجليزية تماما وبدآ يتحدثان بلغة عربية صحيحة. وبدا الطفلان كأي طفلين في حي العروض، فقد صبغت شمس الصيف بشرتيهما حتى اكتسيا باللون البرونزي، وتلفت ثيابهما واستبدلاها بثياب كتلك التي يلبسها عامة أطفال العروض.

وبرع الطفلان بمحاكاة حياة أطفال العروض، فقد أصبح شعلان الأفضل في لعبة (السبعة حجارة)، وأتقن صناعة الطائرات الورقية باستخدام ورق الجرائد القديمة والقصب الذي كان يحضره من أعلى

الجبل، والعجين الذين كان يتحين الفرصة لسرقته من (باطية) أمينة. وبرع كذلك في ملاحقة الطيور واكتشاف أعشاشها، فقد أحضر عشر بيضات شنّار في أحد الأيام حسده عليها الأولاد. وتسلق الأشجار العالية والصخور المرتفعة التي كانت تميز الجبل الذي يعلو حي العروض.

أما تينة فقد تميزت بين قريناتها من بنات الحي، فهي الأفضل في لعبة (الملاقيف)[١٣] حيث كانت تدير الحجارة المكعبة بين أصابعها وعلى ظهر يدها بخفة ورشاقة، وتصنع الدمى من القماش الذي تحصل عليه من الملابس البالية التي تخيطها على شكل دمية، وتحشوها بقطع قماش صغيرة أو قطن تستله بخفة من داخل إحدى الوسائد دون أن تشعر أمينة بذلك، وتستخدم زرا للرأس وقطعتي قماش كيدين. كانت تقفز بالحبل برشاقة وتفوق قريناتها في لعبة (الحجلة) و(الغمّيض)[14].

أما لعبة (الحرب) فقد كانت اللعبة الوحيدة التي يشترك بها البنات والصبيان في حي العروض. يشكل الصبيان فريقا والبنات فريقا آخراً ويتقاذف الجميع كرة يصنعونها من قطع القماش الملتفة على بعضها بشكل محكم، ومن تلمسه الكرة، دون أن يستطيع التقاطها بيديه أو ضربها برأسه، يتنحى جانبا. وتستمر الحرب سجالا بين الفريقين حتى يستطيع فريق أن يدحر الفريق الآخر بعيدا. وكانت أصوات الأطفال تعلو وتنخفض مع تدحرج كرة القماش، وتتعالى ضحكاتهم واحتجاجهم أحيانا، فذلك يحلف أعظم الأيمان أن الكرة لم تلمسه

١٣ لعبة شعبية تلعبها الفتيات باستخدام خمس قطع من الحجارة المكعبة الشكل.

١٤ الحجلة والغميض ألعاب شعبية.

والآخر يؤكد له أنه سددها مباشرة إليه.

عاش شعلان وتينة حياة العروض بكل براءتها وكل شقاوتها. وقد عرفهما جميع الأطفال بأنهما أبناء أمينة، وهما بدورهما أحبا أمينة كأمهما، وكانا بارين بها. وأحست أمينة أن الله قد أخذ منها ابنيها لكنه أعطاها بدلا منهما شعلان وتينة، فحمدت الله على ذلك وأخلصت في تربيتهما وتأديبهما.

أما رزق فقد غاب مرة أخرى، ولم تسمع منه أمينة شيئا. وكانت فتحية تتصل ببيت المختار أحيانا كثيرة وتسأل عن أخبار أمها، وتطلب أن تكلمها. كان المختار يرسل أحد أبنائه إلى أمينة ويخبرها أن فتحية ستتصل مساء الغد، تنتظر أمينة الغد بفارغ الصبر، تحس أن عقارب الساعة تزحف ببطء، وأن الليل ثقيل الظل يخيم على الدنيا ولا ينزاح عنها، تعد الدقائق والثواني وتنتظر سماع صوت ابنتها التي غابت عنها، تنتظر أن تسمع ما يسر بالها، تسألها عن عبد الفتاح، لكنها تتردد بالإجابة قبل أن تقول أنه بخير:

- لماذا لا يكلمني؟

- إنه في عمله الآن.

- ألا ينتهي هذا العمل؟ ألا يوجد هاتف في محل عمله؟

تتساءل أمينة بحسرة. لكن فتحية تحتج لها بأي عذر، وتنهي المكالمة بسرعة بحجة ارتفاع أسعار المكالمات الدولية.

- قلب الأم لا يمكن أن يخطئ. لا أصدق أن عبد الفتاح بخير، لا بد أنه قد أصيب بمكروه.

هكذا كانت تردد أمينة دائما، غير مصدقة لطمأنة فتحية.

اضطرت فتحية أخيرا، بعد إلحاح أمها، أن تخبرها أنها لا تعلم شيئا عن عبد الفتاح الذي غادر مع والده بعد فترة وجيزة من وصوله إلى أمريكا، وأنه لم يعد، ولم تسمع عنه أو عن أبيها أي خبر. بعد ذلك، أصبحت اتصالات فتحية تقل وتنحسر حتى اكتفت بالاتصال يومي العيد، ولم يعد المختار يتجشم عناء مناداة أمينة، بل اقتصر على طمأنتها ونقل الأخبار لها عندما يراها.

كان وجود شعلان وتينة هو الشعلة التي أنارت لأمينة حياتها وخففت عنها وطأة غياب أولادها، لذلك نذرت كل حياتها لهما، توفر كل ما تستطيع لهما من الحب والحنان والرعاية. شب الطفلان وأينعا، وقد تمتعا بذكاء حاد ودماثة خلق حتى غبطت نساء الحي أمينة عليهما، ونسي الجميع أو تناسوا أنهما ليسا ولديها، بل كانا يعرفان في الحي بشعلان وتينة أولاد الحاجة أمينة.

أنهت تينة دراستها الثانوية بتفوق، وقُبِلت في كلية الطب. لقد شارف حلم أمينة أن يتحقق مرة أخرى. فقد كانت تحلم أن تصبح فتحية طبيبة، لكن القدر شاء أن تصبح تينة هي الطبيبة، وأمينة لا تفرق بين البنتين بل أن قربها من تينة وبعدها عن فتحية قد جعل لتينة مكانا أرحب في قلبها.

خفق قلب أمينة وهي تنظر إلى تينة الشابة، ممشوقة القوام ناهدة الصدر، وهي تصفف شعرها الذهبي، فهي بحق أجمل بنات الحي وبنات البلدة. في ذلك اليوم حضر المختار أبو إياد لزيارة أمينة.

- كيف حالك يا حاجة أمينة؟

- بخير. هل هناك أخبار من فتحية وزوجها؟

- لم يتصلا منذ وقت طويل، لكنهما بخير. فقط أعباء الدنيا هي التي تمنعهما عنا، فالحياة في أمريكا صعبة ومكلفة كما تعلمين، الجميع يعمل ليل نهار.

- إن شاء الله نسمع الأخبار الطيبة عنهما.

- كيف حال تينة؟

- هي بخير، وستلتحق بالجامعة هذا العام.

- لا بأس، قد جئتك طالبا يدها لابني حمزة، فلا ترديني خائبا، وأنا أعدك أن أسمح لها بإكمال تعليمها حتى تصبح طبيبة كما ترغبين.

- أرجوك يا مختار ألّا تعود لهذا الكلام مرة أخرى، فأنا لن أزوج تينة حتى تتخرج طبيبة وتختار عريسها بنفسها، لا أريد أن أكرر ما حصل مع فتحية.

- وهل تعتبرين زواج فتحية من ابني خطأ؟ فقد كانت ابنتك محظوظة لأنها تزوجت ابني، وهي اليوم تعيش حياة رغيدة في أمريكا، لم يكن لها أن تحلم بها لولا ابني. وعلى كل حال، أنا أخطأت عندما جئت طالبا يد تينة منك، فأنت لست أمها ولا تمتين لها بصلة. فجدها أبو رزق ما زال على قيد الحياة، وأنا أعرف كيف أصل إلى أبيها.

- أغرب عن وجهي ولا أريد أن أراك ثانية، ولا تظن أنني سأقف مكتوفة الأيدي إذا حاول أحد أن ينتزع أولادي مني مرة أخرى. أفهمت؟

انصرف أبو إياد وهو يستشيط غضبا، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، عندما قابل شعلان منهمكا باللعب مع أولاد العروض على الرغم من أنه أصبحا شابا ذا خمسة عشر ربيعا. نادى المختار شعلان، وقال له:

- خبر أمك أن أباك سيحضر هذا الصيف، وعندها ستكون تينة من نصيب ابني حمزة.

- إن شاء الله يا عمي.

رد شعلان بأدب.

ومنذ ذلك اليوم تجلس أمينة في كل صباح قرب نافذة منزلها الشمالية التي تطل على ساحة اللعب التي كانت دائما عامرة بأصوات أطفال العروض وهم يلهون. راقبت الأطفال وهم يكبرون، ثم شاهدتهم وهم يغيبون عن الساحة وعن الحي وعن البلدة واحدا تلو الآخر، حتى خلا العروض إلا من بضع عجائز ينتظرن ملك الموت أن يمد لهن يد الرحمة.

ما زالت حجارة الأطفال متناثرة في أرجاء الساحة، وتلك الكرة القماشية ملقاة إلى جانب السلسلة الحجرية، الأرجوحة ما تزال معلقة في غصن شجرة الزيتون الرومية تهتز كلما داعبتها الرياح، والحبل الذي هجرته الفتيات لا يزال ملقى جانب البئر القديمة.

تجلس أمينة قرب نافذتها وترى عبد الفتاح يكبر في تلك الساحة ثم شعلان، ترى أطفال العروض يرتادونها وتتعالى أصواتهم في جنباتها، ثم تصحو لتجدها خاوية. ما زالت دمية تينة تعانق دمية فتحية في ذلك الصندوق الخشبي الذي تحتفظ به أمينة منذ يوم زفافها. وما زالت أمينة

تنتظر أطفال العروض ليبدأوا لعبهم من جديد.

لم تكن أمينة لتتخلى عن شعلان وتينة كما تخلت عن عبد الفتاح وفتحية. لذلك فقد استأسدت دفاعا عنهم، ولم تفلح جميع محاولات المختار أبي إياد بثنيها عن رأيها، وكان أبو رزق أضعف من أن يفرض عليها رأيا. تشبثت أمينة "بولديها"، وها هي تينة قد أصبحت طبيبة، تعمل في مستشفى المقاصد في القدس، أما شعلان فقد أصبح مهندسا ماهرا، ونجح في مجال الأعمال في مدينة رام الله

****

(١٠)

المحتوم

تينة، الطبيبة، ذات قلب رقيق وعلى قدر عالٍ من الخلق الرفيع. فهي تحنو على الجميع وتعطف على كبار السن. فأصبحت الإنسانة الشفوقة التي تساعد أبناء بلدتها وتزورهم وتطمئن على صحتهم، وتقدم لهم العلاج الذي يحتاجونه. وقد حرصت أشد الحرص على زيارة الحاجة خضرة في عليتها، عندما تعود من عملها في مدينة القدس.

كانت الحاجة خضرة تسميه محتوما!

شاخت الحاجة خضرة، وبدأت ذاكرتها تخونها في كثير من الأحيان، لذلك فهي تعاود السؤال:

- "فيه محتوم في طريق البلد؟"

ترد تينة في كل مرة:

- "يا حاجة اسمه محسوم[١٥] مش محتوم".

فتعقب الحاجة خضرة بغضب:

١٥ محسوم: كلمة عبرية تعني الحاجز.

- "محسوم وإلا غيره، ما هو محتوم علينا".

فتجيب تينة:

- "معك حق يا حاجة".

الحاجة خضرة بلغت من العمر أكثر من تسعين حولا، فعمرها منقوش على عليتها لا يمكن أن ينسى، وقد عاصرت الكثير من الحكومات التي حكمت بلدتها. فهي تذكر حكايات أمها عن حكم الأتراك، وأما الإنجليز فقد رأت بأم عينيها ما كانوا يفعلون في بلدتها كلما دخلوها، باحثين عن الثوار. وعاصرت حرب عام ١٩٤٨ ثم الحكم الأردني ثم دخول الصهاينة إلى البلدة محتلين، لكنها لم تسمع من قبل بوجود جدار يحيط بالبلدة وحاجز يفصلها عن محيطها، لا يتم الدخول والخروج إلا من خلاله.

هذا ما يسميه أهالي البلدة المحسوم. لكن الكلمة لم ترق لها كما لم يرق لها وجود هذا الحاجز، فأبت ذاكرتها الضعيفة أن تحفظ هذه الكلمة الغريبة، وكذلك أبت أن تعترف بوجود هذا الحاجز. لذلك فهي تعاود السؤال في كل يوم عن "المحتوم"!

أما تينة فلا تتضجر من سؤال الحاجة خضرة المستمر عن المحتوم، فهي كغيرها من أهالي البلدة تمارس طقوس المعاناة اليومية على هذا الحاجز، فعليها في كل يوم أن تجتازه في طريقها إلى العمل وكذلك في طريق عودتها. وفي كل يوم هناك حكاية جديدة من المعاناة والإذلال، لا تجد تينة غضاضة في أن تبوح بها إلى الحاجة خضرة. وعلى كل حال، فإن الحاجة خضرة لن تذكر من هذه الحكايات شيئا، وستعاود السؤال في

اليوم التالي.

- "فيه محتوم في طريق البلد؟"

ضحكت تينة لسؤال الحاجة خضرة، ورمت نفسها على الأريكة، لتستريح من عناء يومها وعناء انتظارها الطويل على الحاجز. ففي هذا اليوم كان الانتظار أطول من العادة، فقد حضرت العجوز خديجة إلى الحاجز. وهذه مناسبة يستعيذ منها رواد الحاجز، فيحاولون أن يصدوا العجوز الخرفة عن مبتغاها لكن دون جدوى، فخديجة سليطة اللسان لا تتورع عن قذف من يتفوه ببنت شفة بوابل من الشتائم.

وخديجة هذه قد ذهب عقلها ولم تعد تعي ما تقول، ولا تذكر من الدنيا غير السنوات القليلة التي قضتها في بلدتها (الجورة) قبل الرحيل عام ١٩٤٨. وفي كل يوم تحمل الحاجة خديجة أثقال السنين على كاهلها، وتيمم وجهها شطر بلدتها، وتنهج باتجاهها، فتصطدم بالحاجز أمامها، فتمنع من الدخول لأنها لا تمتلك "التصريح".

وحضور الحاجة خديجة اليومي إلى الحاجز فرصة للجنود للتندر بها، فما أن تخترق البوابة الأولى في "معبر" قلنديا، والتي يسميها رواده ب (المعّاطة)، وذلك للشبه الشديد بينها وبين تلك الآلة التي تقوم بنتف الريش عن الدجاج، حتى تتخطى جميع المنتظرين أمام البوابات وتقف عند ذلك الباب الدائري الذي يتحكم الجنود بفتحه وإغلاقه.

يحاول المنتظرون ثني العجوز عن الدخول بكل الأساليب، ولكن دون جدوى. يحاولون أحيانا إقناعها بأنه لن يسمح لها بالدخول لعدم حصولها على التصريح. فتجيب:

- لا أحد يستطيع أن يمنعني من العودة إلى بيتي.

وعندما يلح عليها الناس الذين سئموا الانتظار، وهم يعلمون يقينا أن دخولها منطقة الفحص يعني مزيدا من الانتظار، فلن يسمح لأحد بالدخول حتى تقتنع الحاجة بالعودة من حيث أتت، عندها تنفجر العجوز فتقذفهم بأقذع الصفات وأسوأ الشتائم، فينكفئ الناس عنها متجنبين شرها مستسلمين للأمر الواقع، فلا تسمع إلا بعض التمتمات من هنا ومن هناك، وبعض الشتائم والكلمات البذيئة، ثم ينبري أحدهم للدفاع عن العجوز قائلا:

- كان الله في عونها، إنها لا تلام لأنها فقدت عقلها.

أما تينة فلا تأبه بوجود العجوز، وترجع إلى الخلف خطوتين لكي تتكئ بظهرها على حائط المعبر البرتقالي، والذي تغير لونه حتى كساه السواد ولتبتعد قليلا عن أمواج الدخان المتصاعدة من سجائر المنتظرين، الذين ما إن تدخل العجوز حتى يشعلوا سجائرهم موقنين أن انتظارهم سيطول. العجوز خديجة تذكّر تينة بالحاجة خضرة التي لا تفتأ تذكر المحسوم الذي لم تصله يوما.

تدخل العجوز وينطلق صوت المجندة عبر الميكروفون:

- "خاجة إنت ارجع لوارا"

يضحك المنتظرون على رطانة المجندة ثم يزداد ضحكهم شدة عندما ترد العجوز باللغة العبرية:

- "ما كرا؟[١٦] "

١٦ ماذا جرى؟ باللغة العبرية.

وتضحك المجندة بدورها وتقول:

- "ارجع وارا ممنوع ادخل".

ثم تعود إلى جهاز الآي فون الذي تحمله لتكمل اللعبة التي تتسلى بها غير آبهة بالعجوز أو جموع المنتظرين في الخارج. تجلس العجوز على الأرض وتمد رجليها، وتخرج النقود من محفظتها وتبدأ بعدها، أما المجندة فهي منهمكة في لعبتها خلف ذلك الحاجز الزجاجي الواقي من الرصاص.

يبدأ المنتظرون بالتذمر والصياح منادين العجوز للعودة، والعجوز تصر على الجلوس وعد النقود، ثم تلتفت إليهم بعد حين لتنهال عليهم بوابل من الشتائم، فيتحول غضب الجموع إلى الشخص الذي يقف على الباب، ويلومونه على سماحه للعجوز بالمرور أمامه وكأنه كان في يده حيلة. وفي هذه اللحظة يستغل بعض من يتقنون العبرية هذه الفرصة ليتقدموا من آخر الطابور إلى أوله ليصيحوا بأعلى أصواتهم على المجندة لتفتح البوابة، والتي لا تنظر إليهم إلا بعد أن تنهي لعبتها، لترد عليهم:

- "خلي خاجة ارجاع لوارا".

فيلتفت الناس إلى العجوز مرة أخرى يصيحون بها دون رحمة وقد نفد صبرهم، لتعاودهم بسيل من الشتائم.

ثم يتلهى الناس ببعضهم، فأعدادهم تتزايد، فتسمع أحدهم يصيح:

- ما الذي أتى بك أمامي؟ هذا ليس مكانك.

فيرد الآخر:

- لن يمر أحد ما دامت العجوز في الداخل، لا أنا ولا أنت.

وتزداد الشجارات والمشاكل كلما طالت مدة الانتظار. أما الواقفون في الخارج فيبدأون بصياغة الشائعات عن سبب إغلاق الحاجز، فييأس بعضهم ويعود من حيث أتى.

وبعد حين، تعود مسحة من العقل إلى العجوز، التي تجد نفسها أمام الجموع يقذفونها بنظرات الحنق ويرفعون أصواتهم غير آبهين بكبر سنها وضعفها. فتقف وتدفع الباب عائدة من حيث أتت.

تتوجه عيون الحضور إلى المجندة التي تعبث بالأي فون لتفتح البوابة، لكنها لا تلقي لهم بالا وتنتظر حتى تنهي لعبتها لتسمح لشخص آخر بالمرور. فيتدافع الناس وقد اختلطت صفوفهم وعادوا إلى الشجار من جديد.

هكذا حكت تينة للحاجة خضرة حكاية العجوز خديجة، وكانت قد حكتها لها مرات ومرات. ولكن في النهاية، تعود الحاجة خضرة لتسألها:

- "فيه محتوم في طريق البلد؟"

فترد تينة:

- "اسمه محسوم مش محتوم".

فتعقب الحاجة خضرة:

- "محسوم وإلا غيره، ما هو محتوم علينا".

اغرورقت عينا تينة بالدموع عندما تذكرت ما حدث لها على الحاجز في اليوم الماضي. فهذه الحادثة لم تشأ أن تحدثها لأحد حتى للحاجة خضرة التي تعاودها السؤال عن المحتوم.

عندما وصلت تينة إلى الحاجز لاحظت تجمعا كبيرا عند المدخل، وبالتحديد عند "المعاطة"، حيث تعالت الأصوات وتكاثر الناس الذين يصدرون تعليمات متناقضة لرجل ضخم الجثة قد علق في داخلها:

- ارجع للخلف.

- أدر نفسك لليمن.

- لا، للشمال أفضل.

- اضغط ببطنك على الحديد واسحب نفسك للخارج.

تتعالى الضحكات، ويلقي أحدهم عقب السيجارة على الأرض ويدوسها بشدة برجله وكأنه ينتقم منها أو ينتقم من الأرض، ويعاود التعليق:

- يا جماعة، لِمَ لا نمسك به ونسحبه للخارج؟

وتزداد الضحكات والتعليقات والشتائم، والرجل عالق في "المعاطة" لا يستطيع الدخول أو الخروج.

أخيرا استطاع الرجل العالق أن يجر نفسه إلى الخارج وقد شارفت أنفاسه على الانقطاع ولم يعلّق بشيء إلا قوله:

- "Thank you for your help."

وعندها فقط أدرك الجميع أن هذا الرجل ضخم الجثة ذا الملامح العربية لا يجيد اللغة العربية، فهو حتما أحد أبناء المنطقة، قد حضر لزيارة بلده من أمريكا التي كبر وترعرع فيها، وحلم دائما بوطن جميل كان يحدثه عنه والداه!

وما إن خرج الرجل حتى تدافع الناس إلى داخل "المعاطة"، وكانت الغلبة للأقوى. أما تينة فانتظرت في الخارج فترة طويلة قبل أن تستطيع أن تشق طريقها داخلها. وهناك، وفي ذلك المكان الضيق، كان عليها أن تشتم رائحة الدخان المتصاعد من سجائر من هم أمامها وخلفها، دون أن تجرؤ على الاحتجاج، فالمدخنون متوترو الأعصاب، ما أن يحتج أحد على رائحة سجائرهم حتى يصبوا جام غضبهم عليه. وهي أيضا مضطرة لتشم رائحة العرق ممن حولها من الناس الذين أجهدهم حر الصيف وطول الانتظار.

أخيرا تخطت تينة مرحلة "المعاطة" ودخلت من الباب الداخلي، وقد أصابها الصداع من كثرة ما سمعت ذوي الأصوات المرتفعة الذين يتبرعون دائما للصياح على الجندي الذي يجلس في غرفة محصنة ضد الرصاص، على كرسي ويمد رجليه على الطاولة التي تواجه الناس وهم يصيحون:

- "خيال، افتاخ هديليت".

وهو لا ينظر إليهم وكأن الأمر لا يعنيه. وما إن يمد يديه إلى المفتاح الذي يتحكم بالباب الدائري في نهاية "المعاطة" حتى يتدافع الناس إلى الداخل ويركضون بأقصى سرعة إلى المسالك التي سينتظرون خلفها مرة أخرى.

أما تينة فلا تحب أن تجري كما يفعل الآخرون، فهي تشعر أن الركض نحو المسلك نوع من المذلة، حيث أن الجنود يراقبون الناس ويضحكون، لذلك فهي تكون دائما في نهاية الطابور غير المنتظم. وتتقدم ببطء مضطرة لسماع حكايات المنتظرين وهم يجيبون على المكالمات التي ترد

على هواتفهم المحمولة، وكأن الانتظار اليومي على الحواجز قد أفسد أخلاق الناس وأباح لهم الكذب. فأحدهم، والذي وصل منذ قليل إلى الحاجز يقول معتذرا عن تأخره عن موعد كما يبدو:

- المعبر مأزّم، وأنا هنا منذ ثلاث ساعات.

وآخر يحاول إقناع أحد بانتظاره، يقول متناسيا أن أمامه أعدادا غفيرة من الناس:

- بعد دقيقتين سأكون خارج المعبر.

والأمّ تلهّي ابنها الصغير وتحاول إخافته حتى يتوقف عن التذمر:

- سيخرج اليهودي من الداخل ويأخذك.

وأخرى تحكي قصة شجارها مع زوجها، وثالثة تشكو ظلم حماتها. وهكذا تعود تينة كل يوم مثقلة بهموم ومشاكل الآخرين، وكأن همومها لا تكفي لتحرمها راحة البدن.

وبعد جهد كبير، تصل تينة إلى البوابة الحديدية الدائرية في نهاية المسلك رقم واحد، وتنتظر بصبر فتح البوابة، لكنها تسمع صوت المجندة عبر مكبر الصوت تقول:

- "مسلك واخد سَكّر، كلّو روخ على مسلك أرباعة".

فيهرع الناس مسرعين متدافعين إلى المسلك الرابع، وتجد تينة نفسها مرة أخرى في نهاية الجمع المزدحم خلف بوابة المسلك. والفوضى تعم المكان، وكل يلوم الآخر ويزجره على وقوفه أمامه، فالجميع يدعي أنه كان في مقدمة الصف عند المسلك الأول، وتتعالى الصيحات ويشتبك

بعض الشباب بالأيدي، وعندها تنطلق المجندة من جديد قائلة:

- "أنا أمزخ معاك، مسلك أرباعة سكر مسلك واخد مفتوخ وفاضي".

وعندها ينطلق الجمع مهرولين ومتدافعين نحو المسلك الأول، وهم يكيلون الشتائم للمجندة التي تظن نفسها خفيفة الظل، بينما يبقى قليل منهم متمسكين بدورهم الذي أحرزوه في مقدمة مسلك أربعة، آملين أن تكون المجندة تمزح من جديد، وأن يفتح المسلك.

وهكذا تجد تينة نفسها في نهاية الطابور من جديد، وتضطر للانتظار حتى يحين دورها، تنتظر بكل شغف تلك "الطقة" التي يسمعها من ينتظر خلف البوابة، معلنة عن فتحها لمرور شخص واحد. اندفعت تينة إلى الداخل، لكن إحدى السيدات التي ما فتئت تزاحم وتختلق الأعذار حشرت نفسها معها في داخل البوابة الدائرية، وعندها انطلق صوت المجندة صائحة:

- "واخد واخد كلّو ارجع لوارا".

اقتنعت تينة بتوجيهات المجندة وعادت أدراجها دافعة الباب الدائري عائدة إلى الخارج، بينما أصرت المرأة المتطفلة على المكوث في الداخل. وعندها بدأ المنتظرون في الخارج بالصياح على المرأة وأمرها بالخروج وهي ترفض ذلك. أما المجندة فقد عادت إلى لعبتها المفضلة على الآي فون، تاركة الجموع في الخارج يتصايحون ويتشاجرون ويتدافعون حتى أضحت تينة في نهاية الركب مرة أخرى.

انتظرت تينة دورها من جديد، وفي هذه المرة دخلت منطقة الفحص لوحدها، وكالعادة وضعت حقيبتها وجميع ما تحمل في آلة الفحص،

ومرت من خلال البوابة التي تكشف عن المعادن. ومع أنها لا تحمل أي شيء معدني، انطلقت الصفارة ومعها انطلق صوت المجندة عبر مكبر الصوت:

- "اشلخ كوندرة وخطها في الماكينة"[17].

خلعت تينة حذاءها ووضعته في آلة الفحص، ومرت من خلال تلك الحلقة الكاشفة للمعادن مرة أخرى، ولكن الصفارة انطلقت من جديد. عادت تينة للخلف وأزالت جميع الدبابيس التي تثبت منديلها على رأسها، ولكن الصفارة لم تتوقف عن الرنين. وعندها صاحت المجندة:

- "اشلخ جلباب وخطّه في الماكينا".

لم تنصع تينة لأوامر المجندة، ولكن الجموع التي أرهقها الانتظار في الخارج صاحت عليها آمرة لها أن تقلع جلبابها وتمر، حتى تتيح لهم الفرصة بالمرور. وانطلقت الإرشادات والفتاوى من ألسنة النساء والرجال يأمرونها بخلع جلبابها، وبدأ بعضهم يتهكم ويتكهن ماذا تلبس الفتاة تحت الجلباب. لكن تينة آثرت العودة من حيث أتت على أن تكشف سترها أمام الناس، فحملت حقيبتها وانطلقت بغضب نحو الباب الدائري، وأدارته خارجة من بين الجموع الذين أختلط حابلهم بنابلهم وبدأوا بالتشاجر من جديد.

مسحت تينة دموعها، وعادت لتقف في مؤخرة الطابور في المسلك الثالث الذي أعلن أحد الجنود عن فتحه قبل قليل، ووقفت خلفها

١٧ ضع الحذاء في آلة الفحص.

امرأة عجوز كانت تحمل بيديها عددا من الأكياس الثقيلة. عندما حان دور تينة، تبرعت بحمل أحد الأكياس عن المرأة العجوز وقالت لها:

- سأنتظرك في الخارج حتى تأتين.

وما أن وضعت تينة الكيس في آلة الفحص، حتى توقفت الآلة عن الدوران قليلا ثم انطلق صوت الجندي من مكبر الصوت:

- "الكيس فيه لخمة إنت هرّب لخمة".

ردت تينة:

- أنا لا أعلم ما بداخل الكيس، إنه ليس لي، أنا فقط أحاول أن أساعد المرأة العجوز.

الجندي بنبرة عالية:

- " إنت كزاب، ادخل غرفة الفخص وسكر باب وراك".

دخلت تينة إلى تلك الغرفة الصغيرة ذات الباب الحديدي الأحمر، وأغلقت الباب الضخم خلفها. وهناك انتظرت حتى حضر أحد الضباط الذي بذلت جهدا كبيرا لتقنعه أن اللحم ليس ملكا لها وإنما هو للمرأة التي تقف عند الباب خلفها، وهي لم تكن تعلم ما بداخل الكيس، فهي يقينا تعلم أن مخالفة إدخال اللحم قد تصل إلى عشرة آلاف دولار. اقتنع الضابط بكلامها وأمرها أن تعيد الكيس إلى المرأة. هكذا فعلت، لكن ردة فعل المنتظرين في الداخل كانت عنيفة، فقد طال انتظارهم بينما كانت هي في غرفة الفحص.

غضت تينة الطرف عن كلامهم، فقد لقيت في ذاك اليوم ما يكفيها.

- لم تأخرت بزيارتي؟

قالت الحاجة خضرة معاتبة تينة.

- تأخرت على "المحسوم" يا حاجة.

قالت الحاجة خضرة:

- "هو فيه محتوم بطريق البلد ؟"

وفي تلك الليلة رأت تينة في المنام أنها تطير في الهواء كالعقاب، تنتقل من مكان لآخر وتحط على الجدران وأسطح المنازل. حلقت تينة عاليا في الفضاء، وطارت من فوق المعبر، ونظرت إلى أسفل ورأت الجموع المتشاجرة خلف البوابات الموصدة. فرحت تينة لأنها لم تضطر للوقوف خلفهم، لقد رأت الجنود في الأسفل صغارا، كانوا صغارا وبعيدين وأضعف من أن يمنعوها من الطيران، كانوا صغارا تافهين، مثلهم مثل صبي يحاول أن يصد الريح بكفيه، وبدا لها الجدار ضئيلا وملتصقا بالأرض، فأنى له أن يصدها عن طريقها! ليتها تستطيع حمل الحاجة خديجة فوق جناحها لتضعها في الجورة، هناك حيث كانت خطواتها الأولى وكان أملها وكان حلمها. وليتها تستطيع وضع الحاجة خضرة فوق الجناح الآخر لتريها أن بلدها لا يمكن أن تحيطها جدر ولا أن يحجب أهلها عنها حاجز.

لم تطل فرحة تينة، حين سمعت صوت والدتها، الحاجة أمينة، وهي توقظها وتقول لها:

- انهضي، ونامي في سريرك.

نظرت تينة إلى أمها بحنق، فقد أيقظتها من حلمها الجميل.

أخلدت تينة للنوم استعدادا ليوم جديد، وحكايات جديدة تحكيها للحاجة خضرة عند عودتها.

****

(١١)

أنا غائب

في قاعة المحاكمة في محكمة الصلح في القدس، جلس حامد متأملا ذلك المبنى البديع. فقد شعر بمسحة من القدسية فيه، وداعبت نفسه إشراقة أمل في مكان أقصى ما كان يرجو من دخوله كآبة وألم. رأى القاضي اليهودي يعتلي تلك المنصة المرتفعة، ويوزع نظراته على الحضور الذين وقفوا له مدّعين احترام مغتصب هو في ميزان العدل مرجوح.

تأمل حامد الأبواب والنوافذ المرتفعة، وكأنها ترنو نحو سحاب سار مسرعا وتركها تعانق السماء، ما أشبهها بنوافذ القيامة وأقواس الجثمانية، وما أشبه الأبواب ببوابات الأقصى الشامخة. ما للقدسية بهذا المكان المقيت! ما أغرب هذه النفس التي تغشاها طمأنينة في أتون هذا المكان الذي كان مجرد التفكير فيه يصيب قلب حامد بالقشعريرة!

ها هي تلك البلاطات الملساء تغطي أرض الغرفة التي بالكاد تحمل أرجل المقاعد الخشبية المصفوفة بانتظام في أرجائها، كم قست عليها الأقدام فأخضعتها حتى أصبحت بهية لامعة! وما أجمل تلك الأحجار

الملونة في قاعدة النافذة! إنه ليس رخاما، لكنه فاق الرخام في تعرجاته وتخالف ألوانه بين الأحمر والأزرق.

لم يرَ حامد أحجارا ملونة بهذا الجمال إلا في عليّة جدته الحاجة خضرة في بيت حنينا القديمة، والتي لم يزرها منذ زمن طويل. وتذكر حامد أباه، الذي كان حجارا، فقد تغنّى دائما بحجارة بلدته، التي اشتهرت بألوانها، وقال له مرة:

– "يا باه، عمره ما طلع حجر فيه لون "بيتنجاني" إلا في محاجر (وعر أبو هرماس) في بيت حنينا"

ها هو ذا الحجر البديع قد تشكل بجميع ألوان الطبيعة، يبدو بهيّا مختالا كالطاووس، وذاك اللون "البيتنجاني" يبرز من بين الألوان الأخرى معلنا أن هذا البناء قد بني بأحجار بلدة حامد. وقد بني منذ زمن بعيد، فمحاجر (وعر أبو هرماس) قد توقفت عن العمل منذ الاحتلال في عام ١٩٦٧، وعندها أصبح اسم المنطقة عطاروت! مستوطنة تضم الكثير من المصانع، لكنها لا تنتج الحجارة.

لم تكن رحلة حامد إلى محكمة الصلح هيّنة يسيرة، بل حفها الخوف والألم والترقب والحذر. فهذا المكان الذي لا يبعد عن سور مدينة القدس سوى مائة متر وكيلومترات قليلة عن بيت حامد في بيت حنينا، كان مكانا بعيدا مجهولا بالنسبة إليه. فثلاثون عاما قد مضت من عمره، لكن عينيه لم تكتحل برؤية هذا الجزء الأصيل من مدينته!

أنّى له أن يحضر هنا وهو غريب في بلده! هو لا يحمل تلك البطاقة الزرقاء التي منحها الاحتلال لسكان المدينة. هي وزر تثقل جيوب

حامليها، لا يغادرون بيوتهم ولا يلجون مكانا دون أن يتوشحوها، تذكرهم دوما بوجود عدو يجثم فوق أرضهم، ويضع حواجز في أرجاء مدينتهم وعلى مداخلها، وعند تلك الحواجز تصبح البطاقة الزرقاء منحة ونقمة، فبدون إبرازها يُصدّ المرء عن بيته وداره، وبها يهان بإذعانه للمحتل الذي يقطع طريقه.

أما حامد فيحمل بطاقة الهوية الخضراء، والتي، وإن كان العلم الفلسطيني يزين أطرافها، إلا أنها الأخرى تذكر بنفس الاحتلال البغيض الذي يفرض حملها. وعند تلك الحواجز تصبح البطاقة الخضراء لعنة على حاملها، فإبرازها يقابل بالصد والإهانة، وقد يودي إلى سجن أو إبعاد.

كانت عائلة حامد قد انتقلت للعيش في بيت حنينا الجديدة، التي تقع ضمن حدود بلدية القدس، عام ١٩٧٠، أي قبل مولد حامد بكثير، حيث بنى أبو حامد بيتا في الجزء الحديث من بلدته، وترك الحاجة خضرة وحيدة في عليتها. لكن حمل بطاقة الهوية الخضراء كان قدر العائلة. ورث حامد هذه البطاقة فكانت عبئا عليه طوال سنوات حياته.

أدرك حامد أنه مختلف عن بقية الأولاد في منطقته، لأول مرة، عندما كان في المدرسة، وتحديدا عندما كان في الصف الخامس الابتدائي. كان حامد محبا للقراءة منذ نعومة أظفاره، لذلك فقد تردد على المكتبة الملحقة بمدرسته، تلك المكتبة التي كانت تابعة لكلية دار المعلمين الريفية التي أسسها أهالي بيت حنينا منذ زمن بعيد، ثم تحولت بعد الاحتلال لمكتبة عامة تابعة لبلدية القدس. تردد على المكتبة مدة من الزمن وقرأ العديد من كتبها قبل أن يبادره أمين المكتبة ويقول له:

- عليك أن تشترك بالمكتبة.

أطاع حامد أمين المكتبة، وشرع يرسم اسمه وعنوانه في خانات النموذج الذي ألقاه الرجل أمامه، وأدخل رقم هويته في المكان المخصص لذلك.

علت وجه الرجل ابتسامة صفراء عندما نظر إلى رقم الهوية وقال لحامد:

- إنك لا تستطيع الاشتراك، لأن المكتبة تقدم خدماتها لحملة الهوية الزرقاء فقط.

أصيب حامد بالصدمة، فقد عشق المكوث في المكتبة، وعشق تلك الكتب المجلدة باللون الأسود، والمدموغة بخاتم مكتبة دار المعلمين الريفية. أحب رائحة الكتب المميزة. كانت أجمل اللحظات تلك التي يعانق فيها كتبه، تنساب الصفحات بين يديه، يلثم الكلمات، يعيش أحداث القصص، يحلق في ملكوت السماوات، يغازل السحاب ويعود بنفس قد ارتوت من حرية لا يجدها إلا في أحضان الكتاب.

لكن صدمته كانت أكبر عندما حضر في اليوم التالي إلى المكتبة فأمره أمين المكتبة بالخروج. وعندما رفض الخروج أمر الأمين مساعدته أن تخرج الطفل عنوة. حيث أمسكت بيده وجرته خارج المكتبة، وقالت له:

- لا تحضر إلى هنا أبدا.

يا لها من حادثة مفجعة كان لها أثر عميق في قلب حامد، فهو لم يعد يستطيع الوصول إلى الكتب التي أحبها. وأصبح يحسد الطلاب الذين يغدون إلى المكتبة ويجيئون بحرية دون أن تدفعهم موظفة المكتبة خارجا، ودون أن يشير الأمين إلى الباب آمرا بالانصراف.

ها هو ذا حامد في المحكمة بعد سنوات طويلة من حادثة المكتبة. هل سيطرد من هذا المبنى البديع كما طرد من المكتبة؟ فما زال كابوس طرده من المكتبة يلاحقه منذ ذلك الزمن، فقد أخذت هذه المكتبة حيزا كبيرا في نفسه وطاردته حادثة طرده منها في مناماته، فتارة يحلم أنه داخل المكتبة يترقب أحدا يأمره بالانصراف، أو أيد تنتزع كتابه وتجره بقسوة وتلقي به إلى الخارج، وتارة يرى أنه يقرأ كتابا في المكتبة عندما تبدأ الكتب بالتطاير والأوراق بالتبعثر، يتبعها لاهثا لكنه يتوه في دوامة تلقي به خارج المكتبة، ينظر إليها من بعيد ويركض نحوها، وعندما يصل إلى بابها تدفعه الموظفة بكلتا يديها فيهوي إلى مكان سحيق.

هل سيطرد حامد من هذا المبنى، المبنيّ بحجارة بلدته كما طرد من مدرسة بلدتهّ! نعم، طرد من المدرسة التي بناها أهل بلدته؛ لتكون محجا للطلاب من جميع القرى المحيطة. ففي العام الذي تلا حادثة المكتبة، رفض مدير المدرسة إعادة تسجيله فيها، لأنه لا يحمل رقم هوية زرقاء. انتُزع حامد من مدرسته التي أحبها ومن بين أصحابه وزملائه الذين اعتاد عليهم، ليجد مكانا له في مدرسة أخرى، تبعد كيلومترات عن بيته.

كان عزاء حامد أن مدرسته الجديدة بها مكتبة يسمح له بارتيادها. صحيح أن هذه المكتبة لم تكن بحجم المكتبة في بيت حنينا، ولم تحو الكتب التي كان يحبها، إلا أنه يمكنه ارتيادها وقتما يشاء دون خوف أن تجره تلك الموظفة الفظة خارجا.

انتبه حامد فجأة لرطن المحامي باللغة العبرية وإلى القاضي الذي كان يقذفه بنظرات غريبة. هو لا يفهم تلك اللغة الغريبة، كما لا يستطيع فهم

نظرات تلك الوجوه الغريبة. ثم عاد ليفكر في هذا المبنى الرائع البناء: ما هو؟ ومن كان يسكنه؟ ونظر خارج النافذة التي يعلوها قوس زين بألواح زجاج تتلون مع كل شعاع شمس يداعبها، فرأى العديد من البيوت الجميلة ذات السطوح المغطاة بالقرميد الأحمر والحدائق الغنّاء. رأى وجوها غريبة تلج وتخرج من تلك البيوت، ورأى علامات الحسرة على الدور التي أنكرت ساكنيها. يا ترى أين يسكن أصحابها؟ في أي مخيم لاجئين يقيمون؟ وبأي وجه حقّ يقطن هؤلاء الغرباء في بيوتهم؟

عاد حامد بذهنه إلى أيام المدرسة، تحديدا سنته الأخيرة فيها. هذه السنة كانت أقسى سنة دراسية، ليس لأن المواد الدراسية أصبحت صعبة عليه، ولا لأنه كان سيتقدم لامتحان الثانوية العامة، بل بسبب الحاجز العسكري الذي نصب في الطريق المؤدية من بيته إلى مدرسته، فكان عليه أن يتخطى الحاجز عن طريق الالتفاف من شوارع فرعية، والقفز إلى حدائق بعض البيوت، ثم التسلل من البوابة خارجا إلى الشارع ومعرضا نفسه لسؤال الدوريات التي كانت دائما ما تجوب المكان.

أصبح الذهاب والإياب إلى المدرسة مغامرة يومية على حامد أن يخوضها ويتحمل أهوالها. وكان التحدي قاسيا، ولكن همة حامد فاقته قسوة وإصرارا. بينما كان الطلاب يركزون في المادة التي يطرحها المعلم، كان حامد دائم التفكير في معضلة الوصول إلى بيته وتخطي الحاجز دون أن يقع في أيدي الأعداء.

وقد مر حامد بمواقف صعبة جدا خلال رحلاته المضنية من مدرسته إلى بيته. ففي كل يوم حكاية جديدة، وفي كل صباح مغامرة مضنيه. ففي إحدى المرات عندما قفز إلى حديقة منزل دون أن ينتبه لوجود

كلب حراسة، لاحقه الكلب خارجا واضطر إلى الهرب باتجاه دورية حرس الحدود التي كانت تلاحق الذين يحاولون تخطي الحواجز العسكرية أمثاله. أخيرا، أفلت من أنياب الكلب، لكنه وقع بين فكيّ مَن هو أشد قسوة ووحشية، فقضى تلك الليلة الباردة مربوطا بسلسلة خارج أحد المعتقلات بالقرب من رام الله، ثم أطلق سراحة في الصباح ليعاود الكرة مرة أخرى.

وكم كان محظوظا عندما استطاع مرة أن يفلت من ملاحقة قوات حرس الحدود له! فقد لاحظه الجنود عندما قفز عن أحد الأسوار؛ فاضطر إلى فتح باب بيت والدخول أمام أهل البيت المشدوهين، خاصة النساء اللواتي سارعن للتستر والاختباء قبل دخول الجنود، لكن حامد خرج من الباب الخلفي وقفز عن سور آخر، واقتحم البيت المجاور، وهناك قام رب البيت بإخفائه في الداخل ثم خرج إلى الجنود الذين أنهوا تفتيش البيت الأول، وقال لهم – وكان يجيد اللغة العبرية – رأيت الشاب الذي تلاحقونه يهرب باتجاه الشرق. انطلت عليهم الخدعة فتوجهوا جهة الشرق، وخرج حامد مهرولا ناحية الغرب باتجاه الشارع الرئيسي. مرت هذه التجربة بسلام، لكنه مرّ بتجارب عديدة بعد ذلك لا تعد ولا تحصى.

لم تكن تجربته في الذهاب والإياب من الجامعة أقل شقاء. فما زال عليه أن يقوم برحلته المضنية اليومية، فلحظات الهروب ليست هي الأصعب وإنما ساعات انتظار المجهول طوال النهار.

لم تمض سنوات الجامعة الأربع بخير. ففي سنته الأخيرة اكتمل بناء الجدار العازل حول مدينة القدس، وأطبق على أنفاسها بإحكام. فلم

يعد هناك أي طريق للمرور، وانقطع حامد عن جامعته التي تقع في الضفة الغربية، ولم يستطع إنهاء دراسته. وانتهى حلمه أن يكون محاميا، يدافع عن المظلومين أمثاله.

تنبه حامد فجأة إلى مجريات المحاكمة. فقد ردد المحامي والقاضي الكلمة نفسها كلما نظروا أو أشاروا إليه: (نفقاد). لم يفهم المقصود بها، فهو لا يعرف من العبرية إلا كلمات قليلة، منها (اين عبودا) أي: لا يوجد عمل. فهذا المصطلح سمعه كثيرا عندما استطاع مرة أن يصل إلى مستوطنة عطاروت الصناعية، ويدق أبواب جميع الورش والمصانع باحثا عن عمل، وكان الرد دائما (اين تعدوت زهوت، اين عبودا)- بدون هوية لا يوجد عمل. لكنه في رحلة بحثه عن عمل لم يسمع قط كلمة (نفقاد) فيا ترى ماذا تعني هذه الكلمة؟

على كل حال، استطاع حامد في نهاية المطاف أن يجد عملا في محل تجاري بالقرب من بيت حنينا. إن أهم ما ميز المحل التجاري أنه لا يبعد عن بيته سوى كيلومترين، أي أنه يستطيع الوصول إليه ماشيا. ولم يرتد هذا المحل كثير من اليهود الذين يقطنون في المستوطنات التي تخنق المكان، فكان أكثر أمنا من غيره من المحال التي يرتادها المستوطنون بحثا عن البضائع الرخيصة.

لقد تحول مكان عمل حامد إلى سجن بالنسبة إليه، فهو لا يستطيع مغادرته إلى أي مكان خشية من إيقافه وسؤاله عن بطاقة هويته، وعندها سيكون مصيره السجن ثم الطرد إلى خارج المدينة.

هو لا يشعر بالراحة في هذه المحكمة الرائعة البنيان، فهو محاط باليهود، ومع ذلك فهو مضطر للجلوس في سكون. لم يكن هذا دأب حامد ولا

شأنه في مكان عمله، فكلما رأى شخصا ذا سحنة مختلفة أو سمع لكنة تنبي عن يهودية صاحبها سارع للاختباء في مخزن المحل وركن هناك حتى يرحل الزبون. أمّا علّان، مالك المتجر، فلم يعبأ بهذا، فهو في نهاية المطاف لا يدفع لحامد إلا أجرا زهيدا لا يتناسب مع ساعات عمله الطويلة.

أصبح السير في الشارع المؤدي إلى عمله، أكثر ما يقلق حامد. فالسير في تلك الطريق محفوف بالمخاطر، فكثيرا ما توضع (الحواجز الطيارة) التي تظهر فجأة ثم تختفي بعد بضع ساعات، وكل من يسير في الشارع معرض للإيقاف والسؤال عن بطاقة الهوية. لكن أكثر ما أزعج حامد هو امتناع سيارات الأجرة عن إيصاله حتى عندما يكون الجو باردا أو ماطرا. وقد ردد حامد في نفسه مرات ومرات:

– ما لسائقي هذه السيارات قد أصبحوا شرطة للاحتلال دون أن يشعروا؟

لكنه لم يكن ليلومهم، فلا بد لهم أن يتحققوا من بطاقة كل شخص يستقل سياراتهم حتى لا يوقعوا أنفسهم في شَرَك مصادرة سياراتهم، وفرض الغرامات العالية عليهم أو السجن أحيانا. لذلك كان على حامد أن يمشي من وإلى عمله حتى في أسوأ الظروف الجوية. وعندما كان يمر عنه أحد أصدقائه يقود سيارته، كان حامد ينظر إلى جهة اليمين والصديق ينظر إلى جهة الشمال، متظاهرين أنهما لا يريان بعضهما، تجنبا للإحراج.

عاد الجدل بين المحامين والقاضي، وترددت كلمة (نفقاد) كلما نظر أحدهم إلى حامد. هذه الجدل ذكّر حامد بالجدل الذي حدث في بيته

عندما قرر الزواج! فقد أحب حامد ابنة خالته تينة التي كانت تقطن مع عائلتها في بيت حنينا القديمة، وحلم بالزواج منها منذ أن كان يافعا. وها هو ذا قد أصبح في سن الزواج وطلب من عائلته أن يتقدموا بخطبتها له. ظن أن والده سيكون سعيدا بذلك، وأن والدته ستسارع إلى بيت اختها، الحاجة أمينة، طالبة القرب منهم، لكنه فوجئ برفض شديد من والديه ومن أفراد عائلته.

تعجب حامد من سبب رفض والديه، فهو يعلم أن علاقتهم ببيت خالته علاقة طيبة لا تشوبها أي شائبة، ويعلم أن أمه تحب تينة وكانت دائما تقول لها: "الله يجعلك من نصيب حامد". فما سر الرفض يا ترى! صحيح أن تينة ليست ابنة أمينة من صلبها، لكن العائلة دائما كانت تعتبر شعلان وتينة جزءا منها، ولم يشعروا أبدا أنهما غريبان.

– "يا بني الله يرضى عليك" قال الأب مخاطبا حامد، "أتريد أن تبقى مشردا طوال عمرك، عليك أن تتزوج فتاة تحمل الهوية الزرقاء، عندها تستطيع الحصول على (تصريح) وبإمكانك أن تتجول وتعمل بحرية".

أجاب حامد: لكني أريد أن أتزوج تينة، ولن ارتبط بغيرها.

قالت الأم وقد ظهر على وجهها الأسى:

– فكر بالأمر يا بني. كيف سنذهب لخطبتها؟ وكيف سنحضر العروس إلى هنا؟ وأنت تعلم أن الجدار قد قطع طريق بيت حنينا القديمة.

أذعن حامد لرغبة والديه، وتزوج رفيقة، كل ما يميزها هو أنها تحمل هوية زرقاء! وها قد مرت سبع سنوات عجاف منذ زواجهما ولم يحصل حامد على تصريح للإقامة ولا للعمل.

رحم الله أبا حامد، فقد توفي منذ سنتين. كانت وفاته صدمة أخرى لحامد ووصمة أخرى طبعت على بطاقته الخضراء، التي مقتها بالرغم من نقاء لونها. فلما شعر والد حامد بآلام حادة في صدره، اصطحبه حامد إلى المركز الصحي القريب من بيته، وعندها قال موظف الاستقبال:

- نحن نقدم خدماتنا لحاملي بطاقات التأمين فقط؟

قال حامد: نحن لا نمتلك أي بطاقة تأمين. نحن نحمل هوية خضراء، لكننا على استعداد لدفع كافة المصاريف الطبية.

نظر الموظف إليه وكأنه هبط عليه من المريخ. وقال:

- نحن آسفون، خذ الوالد إلى مستشفى المقاصد.

خرج حامد ليبحث عن سيارة تقلهما إلى المستشفى، لكن الأمر كان عسيرا، فليس هناك من سيغامر بحمل مواطن من (الضفة الغربية) في سيارته حتى ولو كان مريضا.

لكن البلدة لا تخلو من الفضلاء، هكذا فكر حامد، الذي أحضر السيارة بعد برهة من الزمن ليجد أباه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أفاق حامد على صوت المترجم يقول للشاهد، سليمان الأهوج:

- هل تقسم أن تقول الحقيقة؟

- نعم أقسم.

- كم عمرك؟

- إحدى وسبعون سنة.

- أين تسكن؟

- في بيت حنينا.

- منذ متى تسكن في بيت حنينا؟

- منذ ولادتي.

- لكنك مولود في الخليل، حسب بطاقة هويتك. ومكان سكنك ليس بيت حنينا أيضا.

- حضرت إلى بيت حنينا صغيرا. ولي الآن بيتان أحدهما في بيت حنينا.

- قلت أنك سكنت في بيت حنينا الجديدة قبل سبعين عاما، لكن البلدة لم تبن إلا بعد ذلك بكثير.

- آ... آ...

- هل تعرف حامد عدنان؟

- أعرفه وأعرف والده.

- لمن البيت الذي يسكنه حامد؟

- إنه ملك للسيد نادر الأعمش.

- وكيف حصل عليه السيد نادر الأعمش؟

- اشتراه من جد حامد عام ١٩٦٣.

- وكيف علمت أن البيت بيع في ذلك التاريخ؟

- أنا كنت شاهدا على عقد البيع الذي سلمه السيد نادر الأعمش

للمحكمة.

- وهل تعلم أن البيت بني في عام ١٩٧٠؟

- لا أذكر.

- كم كان عمر نادر الأعمش عندما اشترى البيت؟

- اذكر أنه كان شابا.

- هل تعلم أن نادر الأعمش وحسب بطاقة هويته مولود في عام ١٩٦٠؟

- لا ... لا أدري.

- تفضل بالجلوس.

تعجب حامد من جرأة هذا العجوز الذي شاب رأسه وارتجفت يداه وقدماه على شهادة الزور. لكنه سرّ لمّا سمع الحوار بين المحامي والشاهد. فقد اتضح لأي عاقل يسمع هذا الحوار أن الشاهد لا يقول الصدق، وأن الوثائق التي قدمها "الغراب" مدعيا ملكية البيت مزورة باطلة.

عاد الحوار ليدور باللغة العبرية مرة أخرى، وسرح حامد في المبنى ذي السقف المرتفع الذي يجلس فيه، وتخيل أنه يصلي في المسجد الأقصى المبارك. وقال في نفسه.

- ما دمت وصلت إلى القدس لا بد أن أصلي في الأقصى.

فالأقصى جزء من كينونة حامد، وبينه وبين حامد حكاية عشق قديمة.

فحامد قد قضى الساعات الطويلة في جنباته أيام طفولته راكعا ساجدا متأملا لجمال قبابه وروعة أروقته. فالقدسية والأقصى كانتا قرينتين في قلب حامد، لم يفرق بينهما، وما كان لشيء أن يفرقه عن مسجده الذي أحبه. لكن العاشق سرعان ما فقد عشيقه، وفرقت بينهما صروف الدهر. فهذه الأيقونة المرسومة في قلبه، والصورة التي تتراءى دائما أمام ناظريه، أصبحت زيارتها بعيدة المنال بالنسبة إليه، فأنّى له أن يصل إليها وشرطة العدو يلازمون أبوابها ويقطعون طريق روادها! لقد آن الأوان أن يعود الحق لأصحابه، وآن الأوان أن يصلي حامد في المسجد الذي كان يلازمه أيام طفولته.

سمع حامد صوت القاضي وهو يقول (نفقاد) وظنه يناقش بطلان أمر إخلاء حامد من منزله. وتذكر تلك اللحظات عندما وصله أمر قضائي يطالبه بإخلاء منزله لأنه ملك لنادر الأعمش – ذلك المزور المعروف بتعامله مع الاحتلال. فقد قدم نادر الأعمش وثائق زورها بعناية حتى بدت وكأنها كتبت منذ خمسين عاما، ادعى فيها أنه اشترى بيت عائلة حامد عام ١٩٦٣، ثم أخذ حكما قضائيا من المحكمة "الإسرائيلية" بإخلاء البيت من ساكنيه. وها هو ذا حامد يستطيع أن يحضر للجلسة الأخيرة من المحاكمة والتي ستبت في أمر البيت.

تبسم حامد وهو ينظر إلى الحجر الملون في قاعدة النافذة المرتفعة. أخيرا سيعود الحق لأصحابه، وسيقر في بيته دون خوف أن يخرجه منه أحد. يكفيه قلقه واضطرابه كلما خرج من باب المنزل، أو سار في الطريق أو كان في مكان عمله، وقال في نفسه:

– أكيد معنى (نفقاد) مزور أو باطل.

وأخيرا، نطق القاضي بحكمه في القضية. لم يفهم حامد شيئا لكنه رأى علامات الرضا تعلو وجهي سليمان الأهوج والغراب. انتظر حامد بصبر سماع المترجم وهو يتلو قرار القاضي:

أولا: ثبت للمحكمة أن الوثائق المقدمة من السيد نادر الأعمش مزورة وغير صحيحة، وبذلك لا يحق له تملك البيت أو رفع قضية بإخلائه.

ثانيا: تبين للمحكمة أن مالك البيت، السيد حامد عدنان، غائب! لذلك فإن ملكية البيت تؤول لحارس أملاك الغائبين، والذي يستطيع الشروع بإجراءات إخلاء البيت منذ هذه اللحظة.

نظر حامد إلى نفسه وقال:

- أنا غائب! هل أنا غائب؟

تبسم القاضي الذي غادر قاعة المحكمة وهو يقول (كين نفقاد) – نعم غائب.

نزل حامد درج المحكمة المستدير بديع البناء. وتلفت في أرجاء المكان ليكتشف أنه داخل كنيسة قديمة غيّب أصحابها فأصبحت محكمة صهيونية!

وقف حامد خارج المحكمة وصاح:

- أنا غائب! ... (أني نفقاد!). رافعا هويته الخضراء بيده.

نظر إليه الشرطة والجنود والمارة ثم مضوا في طريقهم، يبدو أنهم لم يروه ولم يسمعوا صوته. يبدو أنه غائب فعلا.

علا صوت حامد مرة أخرى:

- أنا غائب! أنا غائب!

تردد صدى الصوت على جدران المباني القديمة، أنا غائب! أنا غائب!

****

(١٢)

رضوان

هام حامد على وجهه في شوارع القدس وحاراتها العتيقة. دخل من الباب الجديد، واخترق حارة النصارى، ثم وقف متأملا كنيسة القيامة؛ شامخة عالية. أعاد شموخها بعض الطمأنينة إلى نفسه، فهذه الكنيسة قد عاصرت أقواما كثيرين، وقد احتلها كثير من الأمم التي غزت بلادنا، جميعهم ذهبوا وبقيت الكنيسة شاهدة على أصالة هذا الوطن.

وصل حامد إلى سوق "باب خان الزيت" ويمم ناحية المسجد الأقصى. لن يغادر القدس قبل أن يصلي في الأقصى ولو أدى ذلك إلى سجنه، فهو ليس حرا على أي حال، وما قيمة حريته بعد أن فقد بيته!

هناك، في المقهى الذي يقع في نهاية السوق، كان يجلس الحاج رمزي في إحدى زواياه يرتشف كوبا من الشاي ويستمتع بنرجيلته بعيدا عن أجواء بلدته. كان حامد كثيرا ما يرى الحاج رمزي وسليمان الأهوج في بيت حنينا الجديدة، ويتعجب كيف كان بإمكانهما الحصول على التصريح اللازم لدخول القدس، بينما هو لا يستطيع ذلك، رغم أنه أحد سكانها!

نادى الحاج رمزي حامدا ودعاه للجلوس معه في المقهى. وقال مستغربا:

– ما بك؟ تبدو مهموما؟ بح لي بكل شيء، فأنا بإمكاني مساعدتك.

وما أن بدأ حامد بالكلام حتى مرّ رضوان من أمام المقهى، متوجها ناحية التكيّة، وعندها بدأ الرجال في المقهى، كعادتهم، بالحديث عن رضوان، فطغى حديثهم على أي صوت آخر. أما الحاج رمزي فجلس يستمع إليهم دون أن يفوه ببنت شفة.

لا يخرج رضوان من بيته إلا نادرا. فهو يقبع في تلك الغرفة المربعة ذات السقف المرتفع، والنافذة اليتيمة، التي بالكاد تمن على الغرفة بشيء من أشعة الشمس في الصباح الباكر، ثم تنكفئ الشمس عنها غير آبهة بها وبمن يقطنها. ورضوان لا يُعنى بالشمس ولا بالهواء ولا بالسماء أو الأرض، ولا يكاد يرى من مدينة القدس العتيقة، التي يسكنها، إلا تلك الجدران العريضة الرطبة التي تميز بيوتها القديمة.

ورضوان هذا، رجل غامض في خريف عمره، يبدو عليه الهزال الشديد، فهو أشبه بكتلة من العظام شدت عليها بشرة قمحاوية تعلوها الصفرة، وله عينان واسعتان جاحظتان، وذراعان رفيعتان طويلتان، وقامة منحنية. ويحمل على جسده ملابس رثة قد علتها الأوساخ التي تحولت إلى ما يشبه طينة دهنية أخفت لون قميصه وسرواله اللذين لازما ذلك الجسد لسنوات لا يمكن احصاؤها. وتظهر من أكمام القميص يدان هزيلتان تعلوهما الأوساخ، وترسم على ظاهرهما خيوطا سوداء متعرجة. ولرضوان لحية كثة وشعر طويل، كان فضيا لكنه تلبد بالدهون فأصبح له لون مميز يتراوح بين حمرة وزرقة وخضرة، وقد طال

شعره حتى التصق بعضه بالقميص المتلبد بالأوساخ.

ولرضوان زيارتان خارج غرفته في كل يوم. زيارة في ساعات الصباح الباكر إلى المتجر القريب من غرفته، حيث يقف بباب المتجر صامتا فيناوله حنا، مالك الدكان، نسخة من جريدة الأمس وشيئا من الطعام، ثم يعود أدراجه دون أن يفوه ببنت شفة. ويخرج مرة أخرى ساعة الظهيرة ويسير مطأطئا رأسه، يحمل وعاء قذرا، حتى يصل إلى مدخل تكية خاصكي سلطان، حيث يسكب له أحد الموجودين قليلا من الحساء دون أن يتكلف عناء الانتظار، وكأن رواد التكية لا يطيقون وقوفه أمامهم؛ فيسارعون لخدمته حتى يبتعد سريعا.

يسير رضوان ملتصقا بالجدار في طريقه القصيرة إلى التكية، لا يكلم أحدا ولا يرد التحية، يبتعد عنه الناس نافرين، ويتقاذفونه بنظرات تنم عن الاستهزاء والامتعاض. ولا يسلم من مضايقات الأولاد الذين يبدأون بالصياح: مجنون، مجنون. أما سلمي، الذي يلازم الجلوس على كرسي منسوج من القش أمام محل التحف الذي يمتلكه، فإنه يخرج محرمة من جيبه يفرغ فيها أنفه ثم يبصق عن شماله، ويتمتم بكلمات غير مفهومة في كل مرة يرى فيها رضوان يجر قدميه دافعا نفسه إزاء الجدار، منكسا رأسه وناظرا إلى موضع قدميه. أما رضوان فلا يبدو أنه يهتم لما يسمع، ولا لنظرات أحد أو ازدرائه.

ورضوان مصدر للشائعات في الحارة، فقد برع الناس في تأليف الحكايات وإلصاقها به، ولكن لا سبيل لمعرفة صحتها من خطئها. فأمّ أيمن التي تسكن في الحوش المقابل لغرفته، أقسمت أنها ترى في كل ليلة روادا يأتون إليه ويتسامرون معه، ويعلو صراخهم وكلامهم، لكنها لا

ترى الباب يفتح، فلا بد أن يكونوا من عالم الجن والأشباح. أما أمّ أحمد، فإنها لا تفتأ تحكي عن ذلك الشاب اليافع الذي تزوج ثم ماتت زوجته وهي تضع مولودها الأول، فحزن عليها حزنا شديدا حتى فقد عقله، فتتدخل أمّ ربيع لتقول أنه لم يفقد عقله وإنما أقسم ألا يكلم أحدا، وألا يخلع ملابسه مدى الحياة. ولكن سرعان ما تكذبهن سارة، التي تسكن في الطابق العلوي، وتقول أنها تعرف رضوان منذ ولادته، وأنه لم يسبق له الزواج، لكن أمّه نذرت أن يكون ابنها (نجوسيّ)؛ أي أن لا يغتسل حتى يبلغ سن السابعة، وذلك حتى تكتب له الحياة، فقد مات لها خمسة من الأطفال قبل أن ترزق به. لكن الطفل رفض الاغتسال وهذه حاله منذ ذلك الحين.

والرجال الذين يداومون الجلوس في المقهى، بالقرب من عقبة التكية، يلمحون رضوان من بعيد، ويحيكون هم بدورهم حكايات تختلف عن ترّهات النسوة. فأبو صابر يقول أنه جاهد مع رضوان ضد اليهود في حرب عام ١٩٤٨، وأنهما وصلا معا إلى حي موشيرم، ورأيا رجلا قصيرا بدينا يحمل حبلا على شكل مشنقة ويضعه في رقبته ويقول لليهود المنهزمين: "أعدكم بالنصر، وإلا ضعوا عنقي في هذه المشنقة." ويؤكد أبو صابر أن الرجل القصير كان بن غريون نفسه، وأن رضوان قال له: "هذا بن غريون." وسدد إليه ولكنه لم يصبه، وما هي إلا ساعات حتى أمر المقاتلون بالانسحاب وعاد اليهود ليسيطروا على المدينة حتى السور الغربي، ومنذ ذلك اليوم ورضوان يعتكف في بيته لا يغادره، محتجا على خيانة رآها بأم عينيه.

يضحك الرجال على رواية أبي صابر غير مصدقين، فهم دوما يستمعون

لأحاديث البطولة التي يرويها عن الحرب، ويعلمون أنه يبالغ إلى درجة الكذب. فيتدخل الحاج حسين قائلا أنه سجن هو ورضوان في سجن القشلة إبان الحكم الأردني، وعندها كان رضوان شابا أنيقا وذكيا، وأن رضوان أخبره سبب سجنه أنه كان مع مجموعة من الشباب يرافقون سياحا أجانب في أزقة القدس العتيقة، عندما تعرّف على سائح وتيقن أنه كان أحد الضباط اليهود الذين قاتلوا ضدهم في الحرب، حاول إبلاغ السلطات الأردنية بذلك، لكن السائح اتهمه أنه سرق آلة التصوير التي تخصه، وقد تعرض لتعذيب شديد في السجن حتى إنه فقد عقله.

وما أن ينهي الحاج حسين روايته حتى يتدخل أبو فارس مستنكرا رواية الحاج حسين، صائحا بأعلى صوته: هذا غير صحيح. فرضوان كان أحد رواد الطرق الصوفية في المدينة، وكان دائم الملازمة لشيخ الطريقة، وكان عذب الصوت ينشد المدائح النبوية، فيطرب له الجميع، حتى كانت ليلة النصف من شعبان في إحدى السنين، وقد بالغ الشيخ رضوان بالذكر والطرب حتى أغمي عليه، وارتمى وسط الحلقة، وتجمع عليه رواده يتبركون منه ويقولون إنه وصل إلى مرحلة عليا من الاتصال، لكنه منذ أن أفاق وهذه حاله، لا يكلم أحدا ولا يخرج من بيته ولا يعتني بنفسه.

وللحاج أبي الأمين رواية مغايرة تماما: فرضوان كان معلم لغة عربية في المدرسة الرشيدية في القدس، وكان من أكثر المعلمين كفاءة وأحبهم للطلبة، وبعد حرب عام ١٩٦٧ بدأ بالعمل النضالي ضد الاحتلال، وكان من أوائل مَن اعتقلوا من رجال القدس، ويبدو أنه تعرض لتعذيب شديد في السجن حتى أنه فقد عقله. وأما الأستاذ ربيع الذي كان معلما في المدرسة الرشيدية لا يذكر أنه التقى رضوان هناك أبدا،

فيشكك برواية أبي الأمين ويؤكد أنه يعلم سر رضوان. فرضوان دخل إلى القدس متخفيا في أوائل السبعينات، بعد أن قام بتنفيذ عدة عمليات ضد الاحتلال، فقد قام بزرع القنابل في الحافلات، وتفجير أحد الأسواق في تل أبيب، ثم قرر أن يتخفى بهذا الشكل حتى لا يشك به أحد.

وأبو مالك يظن أيضا أن رضوان جاء من خارج القدس، ولكنه يروي رواية أخرى. فرضوان كان يمتلك مساحة من الأراضي في إحدى القرى، ولكنه باعها عن طريق أحد السماسرة، وتبين له لاحقا أن الأرض تسربت لليهود، فخرج من قريته خوفا وخزيا من أهلها، وجاء إلى القدس ليعيش هذه الحياة النكدة. وهنا يتدخل أبو سامي ليكذب رواية أبي مالك ويقرّعه على اتهام الرجل ببيع الأرض لليهود ويقول له: لا أحد يعرف قصة رضوان أكثر مني، فهو كان جاري في حارة المغاربة، وهو من أصل مغربي، ولا يوجد له أي أقارب في القدس، لكنه أخرج من بيته مباشرة بعد الاحتلال، ورأى بأمّ عينيه الجرافات وهي تزيل الحي بالكامل؛ لتبني حيا يهوديا مكانه، وتوسع ساحة حائط البراق للمصلين اليهود! لم يتحمل رضوان هول الموقف وأصيب بلوثة من الجنون ما زالت تلازمه حتى الآن.

يحتدم النقاش بين الرجال، وتتعدد الروايات، ولا تنتهي حتى يغيب رضوان عن ناظرهم، فيصيح أحدهم بعامل المقهى آمرا له تغيير رأس الشيشة، فتتداخل الأصوات ويبدأ الرجال بمناقشة موضوع آخر، متناسين رضوان حتى يظهر شبحه في اليوم الذي يليه.

أمّا رضوان فينكفئ في غرفته يقرأ الجريدة، لا يترك شاردة ولا واردة،

يلتهمها كلمة كلمة، فهي جل ما يقوم به خلال اليوم والليلة، ثم يضع جريدته فوق أكوام الصحف التي تراكمت في غرفته على مدى عشرات السنين، ويتناول دواة وقلما ويبدأ بالكتابة.....

حنّا هو الشخص الوحيد في المدينة الذي يتعامل مع رضوان عن قرب، فهو الذي يناوله جريدته، ويعطيه طعامه من بضائعه التي تشارف على الفساد، فهو أحق الناس بالرواية عن رضوان، ويدّعي أنه يعلم جميع أسراره وقصة حياته، والتي يحكيها دائما لجاره الحاج سالم مالك محل العطارة. يقول حنا: رضوان كما ترى رجل غريب الأطوار، يختلف عن كل الرجال الذين قابلتهم في حياتي، فعلى الرغم من ملابسه القذرة ورائحة المتنة، إلا أنه رجل مثقف فهو حريص على قراءة الجريدة كل صباح، لكن لسانه معقود ولا يستطيع الكلام، وهو على هذه الحال منذ عاما ١٩٦٩، فقد كان من أوائل من هب لإطفاء حريق المسجد الأقصى، ورأى منبر نور الدين زنكي وهو يشتعل بالنيران، أحضر الماء وبذل كل ما بوسعه لإخماد الحريق، وقد اسودّ بدنه وطالت النيران جزءا من ملابسه، وقد أصيب بصدمة شديدة عقدت لسانه، وهو منذ ذلك اليوم يرتدي ملابسه المحترقة، ويعتكف في غرفته. لكن الحاج سالم يقول لحنّا أنه يذكر رضوان جيدا، وأنه لم يصبح على هذه الحال إلا في فترة متأخرة جدا، وأنه كان يكشف الطريق للشباب والأطفال خلال الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٨، ويراقب الأزقة، ويقوم بتجميع الحجارة أمام باب منزله ليلقيها الأطفال على جنود العدو، ولكنه أصيب برصاصة مطاطية في رأسه فاختل عقله.

أما بائع الكعك أبو اسماعيل، فقد اضطر أن يضع طرحة الكعك أرضا

ويتوقف أمام دكان حنا عندما سمع الحاج سالم يحكي قصته هذه؛ ليقول له أن كلامه عار من الصحة، لأن رضوان كان يعمل في مخبز الكعك في باب حطة، وكان من أمهر الخبازين، يقف أمام الفرن طوال الليل وجزءا من النهار حتى في أكثر الأيام حرا، وأن الكعك الذي كان يصنعه هو الذي أعطى لكعك القدس شهرته، فرواد المسجد الأقصى كانوا يرتادون مخبزه، ويصطفون بالعشرات لابتياع كعكه، لكنه سقط يوما عندما كان ينظف بيت النار، وأصيب برأسه فأصبح بهذا الحال منذ ذلك اليوم.

وفي تكية خاصكي سلطان فإن القصص التي تحاك حول رضوان لا تكاد تنتهي. فالأستاذ أنور، الذي كان يعمل في مطبعة دار الأيتام الإسلامية يعرف رضوان، كما يزعم، معرفة جيده، فقد كان صديقه منذ أيام الطفولة، ويذكر عندما أصيب رضوان بحمى شديدة ألزمته الفراش أياما عديدة، وهو بنفسه قد ساعد في حمل رضوان إلى مستشفى الهوسبيس في طريق الواد حيث لبث هناك ثلاثة أشهر طويلة قبل أن يخرج فاقدا عقله. ويؤكد صالح العلي، الذي يعمل في منجرة دار الأيتام الإسلامية، رواية الأستاذ أنور، لكنه يقول إن رضوان مكث في مستشفى المطلع في جبل الزيتون وليس في مستشفى الهوسبيس، وأن طبيبا أعطاه حقنة خطأً أفقدته عقله.

رواية الأستاذ أنور وصالح تثير غضب طباخ التكية، السيد جلال، الذي يقول أن أباه حدثه عن رضوان، وأن أباه لا يمكن أن يكون كاذبا، لذلك فهو يرفض سماع أي قصة مغايرة عنه. فرضوان كان صغيرا عندما خرج في موكب النبي موسى مع أهالي القدس والقرى المجاورة

الذين احتشدوا خلف المفتي الحاج أمين الحسيني في الموسم، وضربوا الدفوف وقرعوا الطبول وخرجوا مهللين مكبرين، وتوجهوا إلى مقام النبي موسى في الطريق من القدس الى أريحا كما كانوا يفعلون في كل عام. كان رضوان صغيرا عندما ألبسه أبوه أفضل الثياب، وحمله خلفه على فرسه، لكنه سقط أرضا عندما جفلت الفرس بالقرب من وادي المقلّق وقد فقد النطق من يومها، وساءت حالته بعد أن توفي والداه وتركاه وحيدا.

أما زياد وهو شاب حديث السن يعمل في تحضير الطعام في التكية، فيحب أن يستثير زميله جلال، ويتساءل دائما:

- وكيف تعلّم رضوان القراءة والكتابة؟

- وما يدريك أنه يجيد القراءة؟

- أراه يحمل الصحيفة في كل يوم.

- وهل رأيته وهو يقرأها؟ يقول السيد جلال بغضب.

فيتدخل علي زميلهم الثالث ليخفف التوتر ويقول: ربما تعلم رضوان القراءة والكتابة في إحدى المدارس في المسجد الأقصى قبل أن يسقط عن الفرس. فوالده بدوره حدثه أن رضوان كان طالبا في المدرسة العمرية، لكن معلم اللغة العربية ضربه بكلتا يديه على أذنيه، فأصيب بالطرش وفقد القدرة على الكلام، وأصيب بلوثة ما زالت تلازمه إلى الآن.

وبعض رواد المقهى يحبون أن يشبهوا رضوان بالقدس، ويثير هذا جدلا كبيرا داخل المقهى، حتى وصل في إحدى المرات إلى التضارب بالكراسي. فالحاج أبو الأمين قال:

– يا جماعة، رضوان مثله مثل هذه المدينة. فهو عجوز منكسر ذليل وهذه المدينة العتيقة منكسرة ذليلة، دنسها الاحتلال تماما مثل ملابس رضوان التي غطتها الأدران. فالقدس هي رضوان ورضوان هو القدس!

لكن أبا مالك رد عليه بقسوة وبنبرة صوت تعبر عن الغضب والاستياء.

– كلامك مردود عليك يا حاج. القدس ليست مثل رضوان، القدس شامخة وهو ذليل، القدس مرفوعة الرأس ورأسه منكّس كأنه يناجي الأرض، القدس عزيزة وهو منكسر، القدس طاهرة وهو نجس. لا يمكن للاحتلال مهما بغى أن يلوث القدس بأقذاره، فجسد القدس قد نما على الطهارة، وعدوها لا يمكن له أن يذلها. فلا تشبه ذلك الرجل الوضيع بالقدس التي كانت وما زالت مرفوعة الهامة.

عاد الحاج أبو الأمين للكلام وقد ازداد اصرارا على رأيه وتمسكا بموقفه:

– وأين العزة والكرامة التي تتحدث عنها؟ هل تستطيع الخروج من المدينة دون أن تحمل بطاقة الهوية التي فرضها عليك الاحتلال؟ هل تستطيع أن تتجول أو تأكل أو تشرب أو حتى تتنفس بحرية؟ الجواب لا. أنت مثلك مثل رضوان حبيس ذليل، بل هو أفضل منك لأنه اختار ذلك لنفسه، أما أنت ففرض عليك رغما عنك.

– القدس أسمى وأعظم من أن تشبهها بمجنون كرضوان.

– رضوان ليس مجنونا، بل هو العاقل بيننا، لذلك رفض العيش في ظل الاحتلال، وصنع عالما خاصا به يعيش فيه متحررا من كل القيود التي تأسرك وتأسرني. رضوان كان مناضلا، قدم لهذه المدينة كل ما استطاع، لكنها تنكرت له عندما زفت لعريسها الجديد.

وهنا تدخل أبو حسين، ليهدئ الموقف ويوقف الجدال، قبل أن يتحول إلى نزاع يفسد عليهم متعة جلوسهم في ذلك المقهى الأثري تحت تلك القباب المبنية من حجارة مدببة دون زخرفة ولا زينة، ببساطة معمارية شديدة تشد كل من يشتهي أن يعيش في أقبية البلدة القديمة.

– يا جماعة، صلوا على النبي. ما لكم وما لرضوان؟ سمير .... التفت إليه نادل المقهى. بالله عليك شغل أغنية "أنت عمري" للحاجّة.

وما أن بدأ صوت أم كلثوم يغمر أرجاء المقهى، حتى اهتز رأس الحاج أبو الأمين وتمايل أبو مالك طربا ونسيا حديثهما عن رضوان، وكأن شيئا لم يكن.

يجلس رضوان في غرفته، في تلك المساحة الضيقة المتبقية بعد أن غمرت الجرائد القديمة معظم مساحة الغرفة، عيناه الواسعتان جاحظتان ووجه ممتقع بالاصفرار، والأفكار تعصف به وتنقله من عصر إلى آخر ومن مكان إلى آخر. عادت إلى ذكراه أيام طفولته، وشبابه، أيام سعادته وشقائه. مر شريط العمر أمام ناظريه مسرعا كسحابة صيف عابرة. ألقى عن كاهله ألم السنين، وحمل قلمه وخط السطر الأخير في رواية بدأها قبل عشرات السنين! وحمل نفسه ونزل الدرج مهرولا في ساعة لم يعتد النزول بها. رأته النسوة من شرفات منازلهن وتعجبن لإطلالته غير المتوقعة في مثل هذا الوقت، مر بالقرب من المقهى وتعالت أصوات رواده متعجبين من ظهور رضوان في ساعات الأصيل. صدح صوت المؤذن من المسجد الأقصى معلنا دخول وقت المغرب عندما وقف رضوان منتصب القامة أمام الدكان. تعجب حنا من مظهر رضوان ومن حضوره في ذلك الوقت وأومأ له:

- تفضّل.

خطا رضوان خطوتين إلى الأمام حتى أصبح منتصبا أمام حنا، وقال بصوت أجش، حولته سنوات من الصمت إلى شيء أشبه برنين ناقوس صدئ في برج كنيسة مهجورة:

- انتهى الكتاب.

استدار رضوان، ومشى مسرعا صاعدا ذلك الدرج المضني بقوة الشباب، ولم يجب حنا وهو ينادي عليه:

- توقف! دعني أفهم ما تقول! سأحاول أن أساعدك!

لكنّ رضوان استمر في سيره الحثيث حتى غاب داخل غرفته أمام أعين نساء الحي اللواتي عقدت الدهشة ألسنتهن. وقضى الرجال ليلتهم تلك يغمرون جو المقهى بأحاديثهم عن رضوان، وسر صحوته المفاجئة، وحاول كل منهم أن يدلي بدلوه، ويستدل بصحوة رضوان على صحة الرواية التي اعتاد أن يرويها عن سبب عزلته.

في الصباح التالي، لم يظهر رضوان كعادته. انتظره حنا ولم يحضر. راقب الطريق ودرجات عقبة التكية فلم يظهر له شبح رضوان، بدا له وكأن شيئا مختلفا وجوا كئيبا قد ساد المدينة الواجمة. وانتظر حتى ساعات الظهيرة، وسار باتجاه التكية حيث اصطف الصبية بأوعيتهم ينتظرون دورهم للحصول على المرق، لكن رضوان لم يكن هناك. سأل حنا موظفي دار الأيتام الإسلامية، وعمال التكية، لكنهم أجمعوا أن رضوان لم يظهر في ذلك اليوم ولم يأتِ ليأخذ حصته من الطعام. وعندها قرر حنا أن يزور رضوان في بيته ليطمئن عليه.

صعد حنا الدرج المؤدي لغرفة رضوان، وقلبه يخفق خفقانا سريعا، فهو لا يعرف ما ينتظره في ذلك المكان الغريب، وعند كل خطوة تذكر حكاية من الحكايات المرعبة التي كان أهل الحارة يتناقلونها عن رضوان، وعما يدور ويجري في بيته، فلم يسبق لأحد أن دخل هذه الغرفة. لكن حنا استجمع قواه وخطا نحو الباب. وهناك رأى كومة من الملابس ملقاة جانب العتبة. نظر إليها، فإذا هي ملابس رضوان التي لازمته منذ أن رآه أول مرة عندما كان يأتي مع والده إلى الدكان وهو حديث السن.

مرأى الملابس الملقاة خارج الباب، زاد من وساوس حنا وهواجسه. فيا ترى ماذا حدث للعجوز؟ ومن أقنعه أن يغير ملابسه؟ أسئلة كثيرة ألحت على حنا وهو يحاول أن يخطو خطوة أخرى نحو الباب ويقرعه بشدة. انتظر حنا قليلا لكنه لم يسمع أي صوت يأتي من الداخل. طرق ثانية وثالثة دون جدوى. بعدها أدار حلقة الباب بيده، ودفع الباب بخفة، فتحرك الباب الخشبي الضخم أمامه دون أدنى مقاومة. نادى بأعلى صوته: رضوان، رضوان. لكن أحدا لم يجبه. يا ترى أين ذهب العجوز رضوان؟

قرر حنا، بعد تردد كبير، أن يدخل إلى الغرفة. خطا خطوات قليلة إلى الداخل، لكنه لم يستطع أن يرى شيئا للوهلة الأولى، فالشمس كانت ساطعة في الخارج بينما الغرفة مظلمة جدا. وقد صدمته أيضا رائحة العفن الكريهة التي ملأت جو الحجرة فعاد أدراجه إلى الخارج وأخذ نَفَسا عميقا قبل أن يعود مرة أخرى.

هناك بعد أن اتضحت له الرؤية قليلا، رأى بيتا لا يشبه أيًا من البيوت التي دخلها في حياته. رأى غرفة مليئة بالآلاف من الجرائد، مكدسة في

جميع أرجائها حتى لم يبقَ متسع للمرور من بينها. ثم رأى إلى جانبها مجموعة كبيرة من الكتب القديمة، التي شكلت كومة كبيرة يعلوها الغبار. ونظر إلى جدران الغرفة، فاستطاع أن يتبين كثيرا من الصور المعلقة على أرجائها. هناك صورة لمجموعة من الثوار، يتوسطهم الشهيد عبد القادر الحسيني، وقد أشير بسهم إلى أحدهم، يبدو أنه رضوان حين كان شابا. وإلى جانبها صورة لرضوان يقف أمام ما يبدو أنه مسرح، وفي الخلف تبدو صورة أم كلثوم تحمل منديلها بيدها، وقد كتب أسفل الصورة (مسرح الحمراء، يافا ١٩٣٧). ثم نظر أسفل منها، فوجد صورة معلقة بشكل مائل ومكسور نصف زجاجها، ويظهر فيها الشاب رضوان بين مجموعة من الطلبة والمدرسين يرتدون البدلات الرسمية وربطات العنق ومكتوب أسفلها (طلاب الصف الرابع الثانوي والهيئة التدريسية في الكلية العربية في القدس ١٩٣٨). نظر حنا إلى حائط الغرفة المقابل فوجد خريطة قديمة لمدينة القدس، باللغة الإنجليزية، تظهر جميع الأماكن داخل البلدة القديمة وخارجها، وبها مخطط للأحياء الجديدة، وقد عنونت الخريطة بِـ(الخارطة الهيكلية لمدينة القدس ١٩٤٦). وإلى اليمين من الخريطة، كانت هناك صورة أخرى لمجموعة من المعلمين يتوسطهم رضوان ومشار إلى الصورة بـ (دار المعلمين الريفية – بيت حنينا)١٩٥٤.

احتار حنا من كل الصور التي رآها، لكن حيرته ازدادت عندما رأى مجموعة كبيرة من الصور الصغيرة ملقاة فوق كومة الكتب. تفحص حنا الصور فهاله ما رأى: رضوان مع مجموعة من الضباط الإنجليز، وصورة أخرى له مع جنود أردنيين يتوسطهم الملك حسين، وصورة

ثالثة له وهو جالس خلف مقود طائرة مقاتلة قديمة، صورة له في مصر وفي لندن وباريس ومدن عالمية أخرى كثيرة. وفي زاوية الغرفة كانت هناك مجموعة من الحيوانات المحنطة: ثعلب، وبومة وأفعى ضخمة موضوعة داخل قارورة.

بدأت دقات قلب حنا بالتسارع في خفقانها، ولم يعد يعلم ما سيرى كلما خطا خطوة أخرى داخل هذه الغرفة العجيبة، فقد رأى ما لم يخطر له على بال، ولكن أين هو رضوان؟ نادى حنا مرة أخرى وبصوت مرتفع:

- رضوان، رضوان، هل أنت هنا؟

لم يجب أحد، فقرر أن يمشي باتجاه النافذة. عند النافذة نظر يمينا ويسارا خلف أكوام الصحف القديمة. وهناك في الزاوية اليسرى للحجرة وخلف تلال الجرائد، كان سرير صغير. وفوق السرير نام رضوان نوما هادئا عميقا. كان مختلفا عن كل المرات التي قابله فيها حنا. كان عليه هندام نظيف وشعره نظيف ومسرَّح، وبدا لون بشرته مختلفا. تقدم حنا خطوة أخرى وأحس جسد رضوان البارد، ونظر إليه بحزن.

كان رضوان قد وضع مفتاحا كبيرا كالقلادة في عنقه، وتدلى على صدره قريبا من قلبه، وبين يديه حمل مجموعة ضخمة من الأوراق المرتبة بشكل أنيق، وقد كتب عليها بخط فائق الجمال: سيرتي الذاتية.

تناول حنا الأوراق ونظر إلى الصفحة الأولى وقرأ: تبدأ الحكاية في قرية بيت حنينا قرب القدس عام ١٩١٧

****

(١٣)

في ظل الجدار

مضت شهور قبل أن يتنفس رائد فجر الحرية. خرج من سجنه ليجد نفسه في سجن آخر! لقد اكتمل بناء جدار الفصل حول بلدته، وبقي بيت رائد وحيدا غربي الجدار، معزولا عن بقية البلدة!

ما أن تشرق الشمس حتى يبدأ ظل الجدار يزحف نحو بيت رائد ويغطيه. ينحني الظل على الحائط الشرقي للمنزل الصغير، ويصعده رويدا رويدا، ويغطي سطح المنزل قبل أن يندمج مع ظل المنزل ويغطي مدخل البيت والساحة الأمامية، راسما تلك الخطوط المتوازية والدوائر الصغيرة التي تذكر ساكني البيت بالجدار الذي ينتصب خلف بيتهم، مانعا عنهم الهواء، حاجبا عنهم رؤية الأفق الجميل الذي كان يمتد بعيدا خلف بيوت القرية وحقولها وزيتونها العتيق. وكأن الجدار أدرك أن قاطني البيت لا ينظرون إليه، فأبى إلا ان يذكِّرهم بنفسه فغزاهم بظله. فبيتهم يقع في السفح الشرقي لجبل منحدر والذي يشكل بدوره جدارا آخر يحجز البيت عن بقية العالم.

تنادي أم رائد بأعلى صوتها.

– رائد، رائد، احضر سريعا وانظر ماذا جرى لأختك هالة.

تفاجأ رائد من صوت أمه المرتفع المفجوع، الذي امتزج بالبكاء والعويل، وأسرع نحو الصوت عند ناحية البيت الشمالية حيث قن الدجاج، ليرى كل أفراد العائلة مجتمعين حول هالة.

كانت هالة ملقاة على الأرض الترابية جانب حوض النعناع تحرك يديها ورجليها بهستيرية، وفمها يرغي بزبد أبيض قد سال حتى اختلط بالتراب، وتتمتم بكلمات تنطقها بصعوبة بالغة. لعنت هالة الجدار، ولعنت اليهود الذين وضعوه، ولعنت أهالي القرية، وشتمت نفسها وأهلها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وقف الجميع واجمين، غير مصدقين لما رأوا بأعينهم، بينما ارتمت الأمّ على ابنتها تهزها بيديها، تحاول يائسة ايقاظها، وتنوح بصوت تردد صداه في ذلك الوادي الذي تشكل بين الجبل والجدار.

لقد اختارت هالة أن تنهي حياتها الغضة بيديها، لم تحتمل كل ما مرّ بالعائلة في الأشهر القليلة الماضية؛ فلقد أصبح الموت أرحم من حياة في ذلك الوادي المعزول دون أدنى أمل للخروج منه إلى العالم الرحب. لقد وضع الجدار حدا لآمالها وأحلامها، ووضع حدا لمستقبلها وطموحها، وحطم أهداب الحياة التي كانت تتعلق بها، فهوت هالة إلى قعر عميق كان الخروج منه فقط بالانتحار!

لقد كانت صدمة انتحار هالة على عائلة رائد عظيمة، لكن ما تلاها كان أصعب. لم يحضر أحد لمواساتهم أو تعزيتهم، وأنّى للناس أن يحضروا وهم معزولون خلف ذلك الجدار الذي لا يستطيع أحد تسلقه؟ وكيف ستدفن الفتاة ومقبرة البلدة وكل شيء في البلدة يقع خلف الجدار اللعين؟

كان على رائد أن يتصل بالرقم الهاتفي الذي أعطاه إياه الكابتن شمعون، عند خروجه من السجن، وقال له:

– إذا احتجتم أيّ شيء من البلدة، ما عليك إلا أن تتصل بي على هذا الرقم، وسأرسل دورية لفتح البوابة العسكرية لك في طريق دخولك وعودتك. لكن لا تحاول إدخال أي شخص معك، وإلا تعرضت للمساءلة القانونية.

أجاب رائد مستغربا:

– لكن، ربما نحتاج للوصول الى البلدة كل يوم، فكما ترى لا يوجد شيء هنا، أراضينا الزراعية خلف الجدار، والدكان خلف الجدار، والمدارس خلفه وكذلك المسجد. فكيف سأنتظر فتح البوابة في كل مرة نحتاج الوصول إلى البلدة؟

– عليك أن تعتاد على هذا، وسنكون متعاونين معك، فلا تقلق.

لم يحاول رائد الاتصال بالكابتن شمعون من قبل إلا مرات قليلة، كان أولها عندما كانت العائلة بحاجة ماسة لشراء المؤونة. أجاب الكابتن المكالمة الهاتفية سريعا، لكنه قبل أن يستمع لطلب رائد انهال عليه بمجموعة من الأسئلة:

– كيف الحياة خلف الجدار؟

– تمام. أجاب رائد متذمرا.

– هل رأيت أحدا يتسلق الجدار؟

– لا لم أر أحدا.

- لا تكذب فنحن نراقبه بآلات التصوير.

- إذا كنت تراقبه فلم تسألني؟

- أريدك أن تخبرني عن كل حركة تدور حول الجدار.

- لا يستطيع أحد أن يصل إلى هذه المنطقة فالجدار عالٍ ومحصن بالأسلاك الشائكة كما تعلم.

- أولئك الملاعين يجدون دائما الوسيلة لاختراقه، لذلك أريدك أن تفتح عينيك جيدا.

- أنا لا شأن لي بذلك، والرجاء عدم توجيه هذه الأسئلة لي.

قال الكابتن شمعون غاضبا:

- ماذا تريد إذن؟

- أريد أن أصل البلدة لأشتري مؤونة بيتنا.

- حسنا، سنفتح لك البوابة غدا الساعة الخامسة عصرا، وسننتظرك نصف ساعة للعودة.

- ألا يمكن فتحها اليوم، فنحن في حاجة ماسة للطعام؟

- أنت لا تساعدني حتى أساعدك، لذا عليك الانتظار للغد.

- حسنا. أجاب رائد مضطرا.

في اليوم التالي، وعند الساعة الخامسة مساء، حضرت سيارة عسكرية ووقفت خلف البوابة الفولاذية الضخمة، والتي يستخدمها الجيش للوصول إلى البلدة لمطاردة الشباب الذين يحاولون اختراق الجدار

للحصول على عمل في المستوطنات اليهودية التي تقع على بعد عدة كيلومترات خلف الجدار. توجه رائد نحو البوابة ووقف صامتا، قام الجنود بتفتيشه ثم حرك أحدهم البوابة بقدر ما يستطيع رائد أن يمر ثم قال آمرا:

- سنفتح لك الساعة الخامسة والنصف بالضبط، إذا تأخرت فلن تستطيع المرور.

- حسنا. أجاب رائد.

ما أن تحركت البوابة حتى بدأ أهالي البلدة في الناحية الأخرى مراقبتها بحذر. فعادة ما يكون فتحها وبالا على البلدة وأبنائها، فهي لا تفتح إلا لاعتقال بعض الشبان أو فرض حظر التجوال.

كم كانت مفاجأة الأهالي عندما رأوا رائدا يدخل وحده مسرعا.

وعندها قال سليمان الأهوج، وهو المعروف في البلدة بنشر الشائعات وكثرة الكلام:

- رائد معه مفتاح البوابة، ويستطيع الدخول والخروج متى ما شاء. والله الحاكم العسكري نفسه لا يدخل البوابة إلا بإذن من الحكومة!

رد عليه أحدهم:

- ماذا تقصد؟ هل تعني أن رائدا عميل متعاون مع الاحتلال؟

أجاب الأهوج متهكما:

- يبدو أن رتبته أعلى من رتبة الحاكم العسكري.

لكن سليم صديق رائد قال غاضبا:

- رائد شاب طيب ومحترم، وهو بعيد عن الشبهات، وفتح البوابة شيء طبيعي، وإلا كيف سيحصل على حاجاته وبيته معزول خلف الجدار؟

- ولماذا لم يهدم بيتهم كما هدمت جميع البيوت التي كانت خلف الجدار؟ لو لم يكن متعاونا مع الاحتلال لهدموا بيته كما هدموا بقية البيوت.

- الله أعلم بالحقيقة. قال سليم غير مقتنع بكلام الأهوج.

وصل رائد إلى البلدة، واشترى حاجاته سريعا ولم يكلم أحدا. حاول بعض الشباب أن يسألوه عن الوضع خلف الجدار ومدى امكانية القفز إلى الجهة الأخرى، لكنه لم يجب وأنهى الحوار سريعا، لأن الوقت كان يمضي بسرعة وخشي أن تغلق البوابة قبل عودته.

وقبل وصوله إلى البوابة في طريق عودته، اعترضه صديقه سليم وطلب منه أن يدخله من البوابة إلى الجهة الأخرى، فهو بحاجة ماسة للعمل. اعتذر رائد قائلا:

- الدورية العسكرية خلف البوابة مباشرة وهي التي ستفتح لي وسيقومون باعتقالي واعتقالك إذا حاولت الدخول.

- لا عليك، أنا سأتدبر أمري، وأنا أعلم أنك تحمل مفتاح البوابة وتستطيع فتحها متى شئت. فلماذا لا تسمح لي بالدخول؟

- أنا لا أملك من أمري شيئا ولا أستطيع الخروج والدخول إلا بعد أن يحضر الجنود ويفتحوا البوابة.

انصرف سليم غير مقتنع بما قاله رائد، ونظر إليه بحسد وهو يخترق

البوابة ثم تغلق خلفه.

وبعد منتصف تلك الليلة، دخلت عدد من الدوريات العسكرية واقتحمت بيوت مجموعة من الشباب الذين اعتادوا أن يتسلقوا الجدار للعمل غربي الجدار، وكان من بينهم سليم.

لقد كانت هذه الحادثة القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد اقتنع معظم أهالي البلدة أن رائد هو الذي وشى بالشباب، وأنه عميل يعمل لصالح مخابرات العدو، وإلا لهدم بيته مثله مثل باقي البيوت، ولما استطاع أن يعيش في تلك المنطقة المعزولة خلف الجدار. واستغل سليمان الأهوج هذه الحادثة لينشر الشائعات، ويتحدث عن كل الأعمال التي قام بها رائد بالسابق خدمة للعدو، فقد عزا كل ما حدث في البلدة من قبل إليه:

- ألم يبع رائد أراضيهم الجنوبية لليهود، ثم التهمت المستعمرة كل الأراضي جنوب القرية؟

- لم يستطع والده تصديق ذلك ومات بحسرته.

عقّب أبو رزق الذي كان يجلس على كرسيه في مدخل دكان الأهوج.

أضاف سليمان الأهوج:

- أتذكرون عندما استشهد سمير ابن الحاج صالح؟ لقد أصبح صديقا لرائد، عندما عمل مع الشباب على بناء السلسلة حول أرض الوقف، وبعدها بقليل اقتاده الجنود من بيته وقتل تحت التعذيب في معتقل المسكوبية.

هز الجميع رؤوسهم موافقين. وعندها استطرد الأهوج قائلا:

- وعندما هُدم بيت الحاج فالح العام الماضي، كان رائد قد طلب يد ابنته ولكنها رفضت، وبعد أيام حضرت جرافات الاحتلال وهدمت البيت. ألا يكفي هذا دليلا على خيانته؟

- والله كلامك جواهر. قال أبو الفيلات.

وعندها نطق نادر الأعمش، بصوته الرخيم، قائلا:

- وأنا بعيني التي سيأكلها الدود، رأيت رائدا يجلس داخل سيارة حرس الحدود التي اعتقلت رامي ابن الحاج سلامة. كان ملثما لكنني أعرفه من بين مائة شخص.

بدأ الحديث عن عمالة رائد ينتشر في جميع بيوت البلدة، وسلقوه بألسنتهم دون رحمة، وصاغوا عنه القصص والحكايات، وعزوا إليه كل المشاكل والمصائب التي حدثت في البلدة من قبل.

تردد رائد كثيرا قبل أن يتصل مرة أخرى بالكابتن شمعون لفتح البوابة، فهو لا يريد أن يجيب على سيل الأسئلة التي يبادره بها، لكنه كان مضطرا للحصول على حاجاته من البلدة. حدد الكابتن موعدا له بعد ثلاثة أيام، انتظره رائد بصبر. فتحت البوابة ودخل رائد داخل البلدة، وعندها فوجئ بالجموع تحيط به وكأنهم كانوا بانتظاره منذ أمد بعيد، وانهالوا عليه ضربا ووصفوه بالعميل والحقير. فرّ رائد نحو البوابة التي لم تكن قد أغلقت بعد، وتبعه الأهالي. دخل رائد سريعا أما الجنود فقد أطلقوا النار في الهواء لتفريقهم قبل أن يقتحموا البوابة.

هذه الحادثة عززت شكوك أهالي البلدة برائد. فلقد ردد سليمان الأهوج:

- لولا أنه مهم بالنسبة لهم لما أطلقوا النار ودافعوا عنه وحموه. الله أعلم

أنه عميل كبير.

تسربت الشكوك إلى أنفس الجميع، حتى إلى نفس سليم صديق رائد وخطيب أخته هاله. لم يرد سليم أن يصدق في البداية، ودافع عن رائد دفاعا مستميتا، وكان يشكك بأقوال سليمان الأهوج مستشهدا بالآية الكريمة: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين." لكن توالي الأحداث جعلته يشك، خاصة بعد تلك الليلة العصيبة التي قضاها في السجن بعد أن رفض رائد إدخاله من البوابة، وازداد شكه وحيرته في كل يوم حتى أنه لم يستطع أن يتغلب على هذا الظن، وبدأ ينظر إلى رائد بعين الريبة والحذر.

في صباح ذلك اليوم المشؤوم اتصل سليم برائد وقال له:

– أريد أن أفسخ خطبتي بأختك هالة.

أجاب رائد مستغربا:

– لماذا؟ ماذا حدث؟ هل تصدق ما يتداوله أهالي القرية عني؟ أنت أكثر الناس معرفة بي، كيف تصدق هذا الكلام الفارغ؟

– لا، أنا لا أصدق، ولكن لا أريد أن تدخل زوجتي من بوابة عسكرية، هذه إهانة لا أستطيع أن احتملها.

– سليم، ماذا جرى لك؟

– هذا آخر كلام عندي، سأرمي بخاتم الخطوبة خلف الجدار، سلام.

يقف رائد أمام جثة أخته هالة محتارا. هل يتصل بالكابتن شمعون لدفن

الجثة في المقبرة؟ أم يدفنها في ظل الجدار، خلف البيت؟ ماذا سيقول الناس عنه؟ وكيف سيستقبلونه داخل البلدة؟

– أريد فتح البوابة لأن أختي توفيت ويجب دفنها في مقبرة البلدة.

– وكيف ماتت أختك؟

– لا أعلم، قضاء وقدرا.

– لن نستطيع فتح البوابة قبل عصر الغد.

– لكن، لا يمكننا أن نحتفظ بالجثة إلى الغد.

– أخبرني عن الذين يخترقون الجدار، وسأفتحها اليوم.

– لا أحد يستطيع تخطي الجدار.

– إذا عليك الانتظار إلى الغد.

قضت العائلة ليلة طويلة ثقيلة حول هالة التي أسلمت نفسها للموت، وتركت البقية كي يقاسوا ألم الفراق ومرارة الظلم. تمنى كل فرد منهم لو كان هو الممدد مكان هالة، فالحياة ليس لها معنى في ظل الجدار المقيت.

لم يشارك في جنازة هالة التي تحركت ببطء نحو المقبرة إلا عدد قليل من أهالي البلدة، الذين قالوا إكرام الميت دفنه، ولا ذنب للفتاة بما اقترف أخوها.

غابت هالة تحت التراب، لكن الشائعات لم تتوقف، فقد أبدعت ذاكرة سليمان الأهوج العديد منها. فقد أكد أن هالة قد انتحرت بعد أن اغتصبها عدد من الضباط اليهود الذين يقضون الليل يتسامرون

في بيت رائد، ويراقبون الشباب الذين يحاولون التسلل خلف الجدار. وأكد أبو رزق الكلام، عندما قال أن هالة اتصلت بحفيدته الدكتورة تينة، قبل أيام، واشتكت أنها تخاف من النوم في بيتهم المعزول خلف الجدار.

لم تعد حياة رائد لها أي معنى بعد أن فقد أخته، وبعد أن اتهم بالعمالة ثم اتهم بعرضه. ما لهؤلاء الناس قد فقدوا عقولهم! هل حدث كل هذا لأن الاحتلال نسي أن يهدم بيته عندما هدم البيوت المجاورة؟

- ليته هدمه! ليته هدمه وأراحني!

صاح رائد بحرارة. ثم تناول معولا ضخما من مخزن البيت، وبدأ بضرب البيت بقوة. خرجت أمه وأخواته وتوسلن له أن يتوقف، لكنه لم يصغ إليهن. ضرب البيت بقوة، ضربة بعد ضربة، حتى تهاوي البيت تحت تأثير ضرباته.

حمل رائد معوله وتوجه نحو الجدار الشامخ خلف البيت المنكوب. وانهال على الجدار ضربا بالمعول وهو يصرخ:

- لتذهب أيها الجدار اللعين إلى الجحيم.

نظر رائد خلفه فوجد الكابتن شمعون ومعه مجموعة من الجنود قد صوبوا أسلحتهم إليه.

استدار إليهم وكشف عن صدره بشجاعة.

(١٤)

عَوْدَة!

شدّ رزق أحزمته وتوجه نحو مطار ميامي قاصدا فلسطين. وعند وصوله مطار اللد، وبعد ساعات من التفتيش والتحقيق، مَنَّ عليه شرطيّ الحدود الصهيوني بتأشيرة لمدة شهر.

جلس رزق على كرسي وسط الرجال الذين جاءوا ليهنئونه بسلامة الوصول، فلم يعد قادرا على الوقوف كثيرا بعد أن ازداد وزنه وتضخمت جثته وأثقله كرشه، وتوسط رأسه الأقرع جثته الضخمة. جلس يحدث القوم عن مغامراته في حياته الطويلة في أمريكا، ويتعمد إدخال بعض الكلمات الإنجليزية خلال حديثه معطيا انطباعا أنه نسي مرادفاتها العربية.

يقيم رزق في بيت المختار أبي إياد منذ أسبوع. فمنذ أن حضر إلى البلدة آثر أن ينزل عند المختار ولم يتوجه إلى بيته القديم حيث تقيم أمينة وشعلان وتينة. رحب به المختار وأنزله في صدر بيته وأكرمه لكنه تساءل:

– لِمَ لا تذهب إلى بيتك، فأولادك في انتظارك؟

– لا أريد أن أذهب عند أمينة، فأنا لا أطيق رؤية هذه العجوز، وسأرسل لها وثيقة طلاقها في أقرب فرصة.

– ولِمَ تطلقها؟ فأنت قد هجرتها منذ وقت طويل فلا داعي بأن تُسمى مطلقة.

– أنا أريد أن أتزوج امرأة شابة، واصطحبها معي إلى أمريكا، ولا بد من طلاق الأولى، لأن أمريكا لا تسمح بزوجتين.

– لماذا لا تأخذ أمينة معك؟ فهي حتما تتمنى رؤية أولادها فتحية وعبد الفتاح، وهي لن تتخلى عن شعلان وتينة بسهولة.

– عبد الفتاح! ومن هو عبد الفتاح؟ ذلك الولد العاق الذي غادرني فور وصولنا إلى أمريكا ولا أعلم عنه شيئا. لو أحسنت أمينة تربيته لما ضاع في بلاد أمريكا. أما شان وتينا فهم أولادي ولا علاقة لها بهما.

– هذا شأنك.

– أريدك أن تحضر لي شان وتينا هنا حتى أراهما وأقنعهما بالذهاب معي إلى أمريكا.

– سأحاول ذلك.

لم يتردد شعلان بالحضور إلى بيت المختار لرؤية أبيه الذي لم يعد يذكر ملامحه. فأطفال العروض كانوا دوما يتكلمون عن أمريكا وعن جمالها الأخاذ ورغد العيش بها، وتمنى جميعهم العيش فيها، وكانت غاية أمنياتهم أن يصلوها يوما ما، كما فعل الكثيرون من قبلهم. تحققت

أمنية معظمهم، عندما تزوج من فتاة تحمل الجنسية الأمريكية، فكانت جسرا يوصله إلى بلاد السمن والعسل. لكن شعلان يحمل هذه الجنسية وبإمكانه السفر في أي وقت يختار، لكنه اختار أن يقيم في وطنه، وأن يتخطى جميع العقبات، حتى تخرّج من مهندسا من جامعة بير زيت، وأستطاع أن ينجح في مجال الأعمال في مدينة رام الله.

أما تينة فقد رفضت رفضا قاطعا النزول إلى بيت المختار وقالت لأبي إياد:

- إذا رغب أبي برؤيتي، فأنا هنا في بيتي.

- إذا لم تحضري الآن فستحضرين إلى بيتي لاحقا، فأنا قد خطبتك لابني حمزة، وسيكون زفافكما قريبا.

- هذا لن يحصل أبدا، ولا تنس أن تخبر ضيفك بذلك.

لم يكن اللقاء حارا بين الأب وأبنائه، فهم لم يشعروا بدفء الأبوة مطلقا، ولم يعتادوا على رؤية رجل يسمى أباً في البيت. وهو بدوره لم يرهم وهم يكبرون، لم يرَ خطواتهم الأولى إلى المدرسة، ولم يرهم يلعبون ويمرحون في فناء البيت، ولم يرهم يمرضون ثم يتعافون. لم ير ساعة تخرجهم من المدرسة، ولا يوم دخولهم الجامعة، ولم يرهم يرفلون بأثواب التخرج معتزين بإنجازهم. لقد كان طوال هذا الوقت يقبع في ذلك المكان الكئيب الذي كان يسميه محلا.

لقد كانت كلمة "أبي" صعبة جدا على لسان شعلان وتينة، وكذلك على لسان رزق. فهذه الكلمة إذا لم يدرج اللسان عليها منذ الصغر تستعصي عليه في الكبر.

حاول رزق أن يقنع ابنه شعلان بالسفر معه إلى أمريكا، لكن شعلان قال له:

- ما حاجتي بأمريكا؟ فأنا امتلك شركة لبيع الهواتف الذكية وأجهزة الحاسوب وأقوم بوصل شبكات الإنترنت.

لم يفهم رزق كثيرا مما قاله ابنه، لكنه زار معرضه في اليوم التالي وبهر بالأجهزة المتقدمة التي تباع هناك، والتي لم ير مثلها في حياته، وتذكر تلك الأجهزة التي كان يحضرها "الحرامي" خلسة ويشتريها بثمن بخس ظانا أنها تساوي الشيء الكثير، وها هو يدرك أنها كانت عبارة عن أجهزة قديمة لا تساوي شيئا.

أما تينة فقد بذلت قصارى جهدها أن تقنع أباها بالبقاء بينهم، فلربما يستطيعون تعويض بعض ما فاتهم من حنان الأبوة. لكن الحقيقة المرة أنه لا يستطيع البقاء، لأن تأشيرته لا تسمح له بالمكوث أكثر من شهر بعدها سيطرد خارج البلاد.

وبعد أيام، كشف رزق عن نيته بيع البيت الذي تقطنه عائلته. لكن أمينة لن ترضى يوما أن يبيع بيتها ويشردها وأبناءها بعد عنائها بتربيتهم كل هذه السنين دون أدنى اهتمام منه؛ فلم يسأل عن أخبارهم يوما، ولم يرسل لهم رسالة ولا هدية، وضنّ عليهم بمكالمة هاتفية، ثم يأتي بعد هذا كله ويريد أن يبيع البيت. بأي حق يفعل هذا؟ هكذا تساءلت أمينة؟ لقد أصبحت كاللبؤة التي جاس عرين أشبالها أسد ضار، وكانت على استعداد أن تدافع عن بيتها مهما كان الثمن.

- وبكم تريد أن تبيع البيت؟ قال شعلان لأبيه.

– أخبرني سليمان الأهوج أنه يساوي مائتي ألف دولار.

– وماذا تريد أن تفعل بهذا المال؟

– سأشتري محلا تجاريا في ميامي.

– وما حاجتك بالمحل، فليس لك عائلة تريد أن تتكفل برعايتها، أليس كذلك؟

– أريد أن أوفر لكم مستقبلا أفضل.

– نحن بخير، لكنك لم تكن معينا لنا عندما كنا بحاجة ماسة لمعونتك، فما بالك اليوم تريد أن توهمنا أنك تحنو علينا وتعمل لرفاهيتنا؟

– أنا بالفعل عملت كل تلك السنين في أمريكا من أجلكم.

– لكننا لم نر أثر نعمتك علينا بتاتا، وها أنت تحضر أخيرا لتبيع بيتنا الذي عشنا فيه طوال حياتنا. عشنا فيه نحلم بأبينا الذي سيحضر يوما ما ليملأه حنانا وبهجة. لقد كنا نحلم أن يكون لنا أب مثل بقية زملائنا وكنا نتساءل دائما: أين هو؟ وها هو ذا يحضر اليوم ليبيع حتى الحلم الذي كنا نحلمه.

– أنا لست أول من باع بيته في البلدة، كثيرون حضروا من أمريكا وباعوا أراضيهم وبيوتهم.

– لا بأس. أنا سأشتري البيت منك، وسأدفع لك المبلغ الذي تريده.

شعر رزق بالإهانة عندما عرض عليه ابنه شراء البيت. فهو لم يتخيل أبدا أن أحدا ممن لم يهاجر من أبناء بلدته يمتلك هذا القدر من المال، فضلا عن امتلاك ابنه له، وهو الذي لم يغادر وطنه ولم يكتو بنار الغربة.

خرج رزق وهام على وجهه في شوارع بلدته وبين أزقتها، تعرف على من بقي من أبناء بلدته وزار مسجدها، وتوجه إلى ربه بالصلاة لأول مرة منذ عقود.

مرّ الشهر سريعا ووجد رزق نفسه في المطار، وودعه أبناؤه. وصل رزق نيويورك فترك العمارات الفارهة وراء ظهره ولم يلتفت إلى تمثال الحرية رافعا صولجانه عاليا، ولكن توجه إلى شارع نوستراند حيث مسجد الإيمان.

دخل رزق المسجد وقت صلاة الجماعة، ووقف في الصف الأخير خلف الجموع، ورفع يديه بالدعاء يطلب من ربه العفو والمغفرة.

****

وفي أحد أيام الشتاء، حضر رجل غريب إلى القرية. أوقف أحد الشباب وسأله عن المختار وعن فلان وفلان، لم يستطع الشاب أن يجيبه على أي من أسئلته، فجميع من سأل عنهم كانوا قد فارقوا الحياة منذ زمن بعيد. وعندها لاحت له علية الحاجة خضرة من بعيد. هذه المضافة! لا يمكن له أن يخطئها فقد عاش في هذه القرية عندما كان صغيرا، ورغم أنه غاب عنها أكثر من خمسين عاما، إلا أن مشهد العلية لا يزال مزروعا في خياله، لقد نسي الوجوه والأشخاص لكنه لم ينس العلية.

سأل الغريب الشاب بلغة لا تخلو من العجمة والرطانة:

- لمن تلك العليّة؟

أجاب الشاب:

- هذه علية الحاجة خضرة.

- الحاجة خضرة! الحاجة خضرة!

رددها الغريب مرات ومرات، وكأنه يحاول أن يتذكر أن أمّه كان اسمها خضرة!

أمّا الحاجة خضرة فقد كانت في ذلك الوقت مستلقية في شمس آذار أمام باب العلية الشرقي، علها تنال شيئا من الدفء. هذا الباب الذي استلقت أمامه في كل آذار من كل سنة خلت ولخمسين عاما كانت تنتظر! كانت تنتظر تلك اللحظة التي يحضر فيها ابنها عزام من الغربة. كانت تحاول دائما أن تتذكر ملامح وجهه كي لا تنساها، ولما نسيتها رسمت له صورة كأجمل ما يكون الشباب. وفي كل يوم كانت تحيك قصة نجاح عاشها ابنها في الغربة. كانت تتخيل يوم زفافه ويوم ولادة أولاده. كانت، في خيالها، تختار له أجمل النساء ثم تتخيل لحظة ميلاد ابنه الأول والثاني والثالث، ثم تتنازل لتتخيل زوجته وهي تلد له بنتا يسميها خضرة. كانت تعيش كل يوم مع عائلته ترعى أولاده وتسرّح شعر خضرة الذهبي الجميل، فشعر خضرة يجب أن يكون ذهبيا مثل شعر أمها، ففتيات الغرب شقراوات، وهي قد اختارت أجملهن لعزام.

كانت الحاجة خضرة تطرد كل فكرة سلبية قد تراودها عن عزام. فهي تعلم أن كثيرا ممن سافر لم يصل إلى مبتغاه – كثير منهم مات في عرض البحر، وكثير منهم عاش فقيرا ومات وحيدا! لم تترك الحاجة خضرة فرصة إلا وسألت عن أخبار ولدها، كانت تذهب لبيت كل من يحضر من الغربة إلى بلدتها تسأل عن أخبار عزام، لكن الإجابة كانت دائما مخيبة لآمالها. لم يسمع عنه أحد، ولا يعلم أحد من أخباره شيئا.

لم تفقد الحاجة خضرة الأمل يوما من حضور عزام. كانت دائما، وفي كل يوم وفي كل ليلة، تتخيل لحظات وصوله، وكيف ستستقبله على باب العلية، وكيف سينكب عزام على يديها يقبلها، وكيف ستضمه إلى صدرها مدة تعوضه عن حنان السنين، ثم كيف ستجلس إليه الليل كله تحدثه ويحدثها عن سنوات غربته، يحكي لها ما رأى من ساعة أن غادرها مسرعا وعيونها تذرف الدمع إلى حين عودته سالما غانما. كانت دائما تحلم بعزام يجلس مكان عمها المختار في العلية يحل مشاكل القرية فيلتئم شمل القرية من جديد في عليتها.

كانت الحاجة خضرة غارقة في أفكارها وقد بدا لها في لحظات نعاسها أن الأصوات تتعالى من داخل العلية: (دندن ورسن)، قبل أن تسمع صوت طفل يشير إليها ويقول:

– هذه هي الحاجة خضرة يا عمي.

غادر الطفل، ووقف رجل مسن ضخم الجثة خلفها ونادى بصوت خجول:

– أنا عزام يا...

لم يستطع قول "يا أمي" فهو لم يتلفظ بها منذ أمد بعيد.

– من أنت؟

ردت الحاجة خضرة، ولم تنظر إليه.

– أنا ابنك عزام.

أجاب الرجل البدين.

- "عزام مات من زمان." ردت الحاجة خضرة. "مات يوم لحقته ومسكت بثيابه حتى يبقى عندي، وراح وتركني، لو كان عزام حيا لما نسيني خمسين سنة، لو كان عزام حيا لكان أرسل لي رسالة، أو سلاما أو أي شيء يطمئنني عنه، عزام مات من زمان، أرجوك لا تفتح مواجعي".

- لكني أنا عزام بشحمه ولحمه، انهضي وانظري إليّ، أنا عزام.

لم تنظر الحاجة خضره إليه ولم تتحرك من مكانها، وكأنها تريد أن تقسو عليه كما قسا عليها طوال هذه السنين. وعندما نظرت إليه لم تستطع أن تتبين ملامحه، وتمتمت:

- لا، لا يمكن أن يكون هذا هو عزام!

لقد كان استقبالها البارد لعزام صدمة حتى لها، فهي لم تتخيل أبدا أن تكون قاسية القلب إلى هذا الحد.

في تلك الليلة، التأم شمل البلدة من جديد في علية الحاجة خضرة، لقد حضر العديد من الرجال لاستقبال عزام، وغصت العلية بالرجال لأول مرة منذ زمن بعيد، وتحلقت النساء خارج العلية ولعب الأولاد حولها. هذا ما كانت تحلم به الحاجة منذ أزل بعيد، لكنها لم تشعر بالسعادة، فقد أحست أن هذا الجمع قد جاء متأخرا جدا.

كانت تتمنى أن تعمر العلية ورائحة خبز الطابون تغمر المكان، وقرقعة دلاء الرعاة تصل مسمعها من البئر، وأكوام القش تغمر البيادر، والزيتون الرومي ينتصب في مكانه هناك غرب القرية، والوادي الشرقي يفيض بالمياه.

لقد حلمت بلحظة عودة عزام، لكن في أحلامها لم يكن هناك جدار

يحيط بالقرية، ولا مستعمرة تلتهم أراضيها، وكانت بيوت القرية ما زالت قائمة تشهد على تاريخ موغل بالقدم، لذلك فهي لم تبتهج لهذه العودة المبتورة. فرحت النساء وابتهج الأولاد لكن الحاجة خضرة لم تفرح ولم تبتهج.

عادت الحاجة خضرة في اليوم التالي لتناجي عليتها وتقول لها:

- يا عليتي، أنت صاحبتي، أنت التي بقيت لي، عزام رجع لكنني لا أشعر أنه هو نفسه عزام الذي ربيته فيك.

أما عزام فقد حاول أن يحكي لأمّه عن أخباره في الغربة، وأن يصف لها الأموال التي جمعها، والبيوت التي بناها، والدكاكين التي فتحها، والأبناء الذين أنجبهم، لكن الحاجة خضرة لم تلق له بالا، واستمرت تعيش في خيالها الجميل الذي بنته على مدار خمسين عاما.

ولم تمض إلا أيام حتى جاء عزام لأمه قائلا:

- استأجرت بيتا جديدا من البيوت المبنية في البيادر.

- ولِمَ استكريت البيت؟

ردت الحاجة خضرة.

- حتى تنتقلي هناك، لأن فيه الماء والكهرباء، وهو دافئ في الشتاء وبارد في الصيف، أنا أسعى لراحتك.

- أنا مرتاحة في بيتي، ولا أريد أن أغادره إلا إلى القبر.

- لكن، عليك أن تخرجي يا حاجة، لأن غدا ستأتي الجرافات لهدم البيت والعليّة، وأعدك أن ابني مكانها قصرا أكبر من كل بيوت القرية.

نزل كلام عزام على قلب الحاجة خضرة كالصاعقة، وصرخت بأعلى صوتها:

- ماذا قلت؟ أتريد هدم العليّة؟ لن يحدث هذا أبدا، هذه العلية أغلى شيء في الدنيا، إذا أردت أن تهدمها فادفني تحتها.

لم يعبأ عزام لكلام أمه، فهو كان قد عقد العزم على هدم العلية وأعد الخطط لبناء الفيلا، ولا يمكنه تأخير عملية الهدم لأنه سيعود لأمريكا بعد أيام، فقد مل الحياة في هذه القرية البائسة. لكن، عليه أن يبدأ بمشروع البناء قبل أن يعود، مثله مثل كل المغتربين الذين يعودون لزيارة بلادهم. أما هذه العجوز فهي قد خرفت ولا تعي ما تقول، وعلى كل حال فهو سينقلها إلى بيت يوفر لها كل وسائل الراحة.

لم يتسلل النوم إلى جفون الحاجة خضرة في تلك الليلة، ودارت في أطراف عليتها وكأنها تودعها. رأت الرجال داخلها، ورأت الثوار وهم يحملون الفراء خارجين منها، سمعت أذان المغرب واشتمت رائحة القهوة منبعثة من المضافة. سمعت أصوات الرجال يصيحون "دندن ورسن."

وفي الصباح خرجت مبكرة ووقفت في المكان الذي جثت فيه البئر لقرون عديدة، ونادت أحد الأولاد المتوجهين إلى المدرسة وقالت له:

-اقرأ لي التاريخ على العلية.

أجاب الولد:

- ١٩١٤/٣/٢١

- احسب لي كم أصبح عمري.

- عمرك مائة سنة يا حاجة.

****

(١٥)

أفول قرن

لم يحضر أبو رزق كعادته في كل صباح إلى دكان سليمان الأهوج، وها هي الشمس تغمر المكان بنورها الساطع، وتفيض على جوانب الجدران وتعلو قبة السماء، ويمر الحاج رمزي يجر عباءته ميمما نحو المسجد استعدادا لصلاة الظهر التي أزفت وحان وقتها. لم يتخلف أبو رزق عن الحضور للدكان منذ زمن طويل. حتى أيام البرد أو الحر لا تمنعه من السعي لدكان الأهوج، فهو ملجؤه الوحيد، وسليمان هو رفيقه الوحيد بعد أن غاب أبناؤه وأحفاده في صحارى الغربة وتشتتوا في متاهاتها، ولم يبق من عائلته سوى شعلان وتينة والذين رغم طيبتهما ومعاملتهما الحسنة لأبي رزق، إلا أنه كان يشعر أنهما غريبان عنه.

نادى سليمان الأهوج الحاج رمزي، الذي كان من عادته ألا يمر من أمام الدكان حتى لا يسمع أبا رزق وهو يبادره بالقول: "ساق الله على أيام زمان" . بادر الحاج بالسؤال:

– هل رأيت أبا رزق؟ لم يأت اليوم، لا بد أن خطبا ما منعه من الحضور.

– ماذا دهاك يا سليمان؟ أنت لا تستطيع العيش دون أحاديث أبي رزق،

عدم قدومه خير لك.

– أنا قلق عليه، لأنه ليس من عادته أن يغيب عني.

– لا تخف، ما هي إلا برهة من الزمن وستراه قادما، وصوته يملأ "ورا الجامع".

– الله يستر.

أكمل الحاج رمزي سيره نحو المسجد، بينما استمر قلق الأهوج على أبي رزق.

في الليلة المنصرمة، وبينما كان أبو رزق يغط في نوم عميق رأى فيما يراه النائم ... رأى أباه، يجرّ بغلته البيضاء عائدا من رحلته إلى المدينة، وكأنه عاد إلى الحياة من جديد وناداه:

– يا محمود، يا محمود، انهض، اذهب لحرث الكروم، على من تتركها ، قم يا محمود.

استيقظ العجوز مذعورا ونظر في أرجاء بيته ليرى أباه، فما زال صوته يتردد في أذنيه، فهو لا يصدق أن هذا كان حلما، لقد كان أبوه يقف أمامه بقامته الطويلة وهيبته المعتادة، وقد وضع طرفي (هنديته)[١٨] تحت حزامه، واتكأ على عصاه التي كان قد استصلحها من أغصان الزيتون، وكان يتعهدها بالرعاية والعناية كما يتعهد شجرة الزيتون. ها هو ذا والده يستنهض همته لحرث الأرض، وهو في عتمة تلك الليلة لم يعد يذكر لماذا لم يحرث الأرض إلى ذلك الوقت المتأخر من الموسم. وأحس أبو رزق بتأنيب الضمير، وأحس بالخجل من أبيه الذي ما زالت صورته

١٨ لباس تقليدي للرجال.

تمثل أمامه.

وفي فجر ذلك اليوم، شدّ أبو رزق على حماره، وجرّ السكّة من (قاع البيت)[١٩] وأودعها ظهر الدابة، ومشى باتجاه الغرب قاصدا حقل الزيتون في (واد داهود)[٢٠]. مشى الحمار مسرعا وكأنه يعلم الطريق، التي لم يسلكها منذ زمن طويل، وتبعه صاحبه يخطو مسرعا وكأن الحياة قد دبّت في أوصاله، وكأن الآلام التي اعتادها في ركبتيه وظهره قد انطفأت. حثّ الخطا وراء الحمار مودعا بيوت القرية ومارا بالمدرسة الغربية منحدرا في تلك الطريق التي كانت تربط القرية ببلدة النبي صمويل وبيت اكسا. وما أن وصل الحمار أسفل المنحدر حتى توقف عن المسير. ضربه العجوز بعصاه ليحثة على السير لكنه توقف ولم يتحرك.

– ما لك توقفت؟ .... ما لك حرنت؟ ... ويلك امشِ .... الله يغضب عليك.

فكر أبو رزق:

– ما للحمار؟ أرأى ضبعا فخارت قوائمه؟

وفي تلك اللحظة بدأت خيوط الفجر تظهر ولاحت له زيتوناته عن بعد، وتقدم الرجل تجاهها لكنه اصطدم بالأسلاك الشائكة التي تقطع الطريق، وهي ليست كتلك الأسلاك المعتادة ذات الإبر الحادة، وإنما نوع آخر أكثر وحشية، فهذه مزينة بأطراف حادة كالخناجر إذا أمسكت شيئا لن تفلته قبل أن تأخذ جزءا منه، ورأى خلفها طريقا معبدة أمام

١٩ المكان المخصص للدواب في البيوت القديمة.

٢٠ وادي غربي قرية بيت حنينا.

جدار عالٍ يحجب كل شيء، إلا أشجار الزيتون السامقة التي تعانق الفضاء، وتركن خلف الجدار بعزة وإباء.

أمسك أبو رزق بطرفي السياج، ونادى بأعلى صوته:

- يا زيتوناتي! لا تغضبن مني، أنا قد جئت لأعتني بكن، جئت لأحرث الأرض وأقلم الأغصان، جئت لأحضنكن وأشتم رائحة المسك التي تفوح من تربتكن، جئت لأكسو جسدي من غباركن، لكنني لم أستطع الوصول. يا زيتوناتي لا تآخذنني، ويا أبي لا تآخذني، فليس في اليد حيلة.

عاد أبو رزق أدراجه، وقد أدميت يداه وعقد العزم أن يذهب ليحرث زيتونات (الطبل)[٢١] في شمال القرية. صعد الرجل طريق (العقبة)[٢٢] تابعا حماره الذي هو الآخر قد تلاشت همته عندما نظر إلى تلك العقبة الكؤود. عندما وصل أبو رزق أعلى التلة، بدأت أشعة الشمس الذهبية تشق طريقها من بين البيوت العتيقة، وبعثت بعض الأمل في نفسه. واستمر بالسير شرقا حتى وصل منطقة (الرُبُع)[٢٣] فتوجه شمالا وقد أسرع الحمار قليلا في تلك الأرض المنبسطة وتبعه أبو رزق لاهثا. واستمر بالمشي تاركا بيوت القرية خلفه، ومر من بين الكروم المقفرة، وتخطى بعض السلاسل المهدمة، حتى شارف على الوصول إلى منطقة الطَبْل.

٢١ أرض زراعية شمال شرق قرية بيت حنينا يشقها شارع استيطاني.
٢٢ منطقة شديدة الانحدار غربي القرية.
٢٣ أرض زراعية وسط قرية بيت حنينا.

وفي تلك اللحظة، سمع أبو رزق صوت سيارة تمر مسرعة، وتعجب الرجل، فهذه المنطقة وإن كانت تؤدي إلى (راس الطريق) إلا أنها لا طريق فيها! كيف ستصل السيارة إلى هنا ولا طريق معبدة؟ وزادت دهشته عندما سمع صوت بوق سيارة أخرى، وكان الصوت يأتي من أعلى! شخص الرجل ببصره إلى أعلى، فوجد عددا كبيرا من المركبات تمرّ بسرعة كبيرة وكأنها تطير في الهواء، وأدرك وجود ذلك الشارع المرتفع الذي ما بني حتى وضعت آلاف الأطنان من الركام، وكأنه سلسلة جبال وجدت هناك منذ الأزل، وتمنع كل شيء من المرور، حتى الرياح تنحني عندها وتعود أدراجها. ها هي ذي الغيوم في السماء تصل هنا ثم تعود أدراجها غربا، تضن بخيراتها على المجهول خلف ذلك الجدار.

وقف الحمار مرّة أخرى، وامتنع عن المسير، فهذه أسلاك شائكة، وخلفها جدار، وخلف الجدار تل عالٍ تمر عنه السيارات مسرعة. أراد أبو رزق أن ينادي زيتوناته لكنه لم يرها. هي هناك، أو ربما ليست هناك، قد تكون ما زالت خلف الجدار وارفة الظلال، أو قد تكون قد ابتلعتها الطريق وغابت عن الوجود بعد أن رست في مكانها ألف عام أو يزيد.

نادى أبو رزق بأعلى صوته لكنه، لم يسمع إلا صدى صوته يتردد في جنبات الوادي. استدار الشيخ ليعود وقد كانت الأسلاك الشائكة قد أمسكت بثوبه ومزقته وأدمت رجليه. نظر خلفه فرأى أباه يطل عليه من بعيد ويحثه على المضي قدما:

– هيّا، هيّا، اذهب واحرث الأرض، يا ولدي، الله يرضى عليك.

رد أبو رزق:

– حسنا يا أبي، ها أنا ذاهب لحراثة زيتونات (الرويس)[٢٤].

سار أبو رزق بمحاذاة الوادي الشرقي متوجها جنوبا باتجاه منطقة (الرويس) وبعد قليل وصل إلى منطقة (البقيع)[٢٥] وقد تداخلت أغصان الزيتون وكسا ظلها الأرض، فبدأ الأمل ينبعث بين جنباته وهو يسير في ظلال الزيتون الكثيف، ونظر حوله وأدرك أن ليس هو وحده الذي لم يحرث الأرض هذا العام، فها هو ذا (البقيع) بأكمله غير محروث، وأشجاره ليست مقلمة.

تابع سيره مارا بأرض الوقف، من أسفل شجرة البلّوط الضخمة، والتي يعرفها أهل البلدة بالفرّارة. وتأكد بعد مروره من تحتها أنه لم يعلق بقدميه شيء من أتربتها – فلا يجوز أخذ شيء من مال الوقف حتى التراب الذي يعلق بالقدم! لكنه لم ير البركة، تلك الزيتونة التي كان أهالي البلدة ينظرون إليها بشيء من القدسية. وتساءل: "متى انتزعت البركة من بلدتنا؟"

وزاد عجب أبي رزق عندما نظر حوله ولم ير أيّا من أشجار المشمش والبرقوق التي كان المكان يعجّ بها، وساءه رؤية السلاسل المهدمة، وتعجب من إهمال أصحابها لها. وما أن اقترب أبو رزق من زيتوناته حتى توقف الحمار مرّة أخرى أمام الأسلاك الشائكة التي كانت تعزل المكان عن هوة عميقة، خلفها جدار عال يحجب السيارات المسرعة في الشارع الالتفافي عن الرؤية، لكن أصواتها كانت تصل إلى مسامع أبي رزق فتزيد حيرة إلى حيرته.

٢٤ أرض زراعية جنوب شرق بيت حنينا يشقها شارع استيطاني.
٢٥ أرض زراعية وسط قرية بيت حنينا.

وقف أبو رزق بمحاذاة الأسلاك الشائكة وصاح مناديا زيتوناته لكنه لم يسمع جوابا، ثم جلس واتكأ بظهره على السياج وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ورأى شبحا قادما من بعيد يمشي متئدا. إنه بلا شك شبح أبيه! ها هو حضر مرة أخرى ليستحثه على العناية بالأرض! ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

وما هي إلا هنيهة حتى سمع صوتا يناديه: محمود، محمود. لا يمكنه أن يخطئ هذا الصوت، إنه صوت خضرة! ولكن ما الذي أتى بخضرة إلى هذا المكان؟ وما بالها تناديه.

انتصب واقفا وقد أخذت الأسلاك الشائكة جزءا من ثوبه وأدمت ظهره، وأجاب:

- نعم، ما بك؟

قال العجوز محمود، وهو ينظر إلى قدميه الداميتين.

- ذهبت لأنكش تعميرة الرويس.

قالت الحاجة خضرة بعد أن وضعت فأسها أرضا.

- نكشتيها؟

- وصلت للرجم، لكن....

- لكن ماذا؟

- وراء الرجم ..... لا يوجد تعميرة ولا.....

توقفت العجوز عن الحديث وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

- وأنا أيضا لا أستطيع الوصول لزيتوناتي لأحرثهن.

استطردت الحاجة خضرة بالحديث بعد أن مسحت الدموع من بين تعاريج وجهها:

- جاءني أبي، (الصوص) بشحمه ولحمه، في الليل وقال لي: انكشي التعميرة يا خضرة.

- وأبي، (العفن) كما عهدته في صغري، أتاني ليلا وقال: احرث الزيتونات يا محمود.

تغيرت ملامح وجه خضرة فجأة، فقد استدارت عيناها وخرجت ابتسامة من شفتيها رغم الحزن الذي كان يغمر وجهها وقالت:

- هيّا نذهب إلى (عداسا). إلى كروم التين والعنب.

استدار أبو رزق نحو حماره وقال بصوت عال لا يخلو من الحماسة والإصرار:

- يا الله، لنذهب.

سار العجوزان، يتكئان على بعضهما ويتبعان حمار أبي رزق الذي أسرع باتجاه (الميشة) بالقرب من الوادي الشرقي. وبعد قليل وصل العجوزان إلى الطريق، تلك الطريق التي كانت تصل بيت حنينا القديمة ببيت حنينا الجديدة. وفجأة قال أبو رزق بنبرة قوية:

- ما رأيك أن نذهب إلى (راس الطريق)؟

- نعم، أريد أن أرى عائلة ابني عدنان.

مشى العجوزان شرقا إلى أن وصلا إلى البوابة الموصدة، التي تحجب حتى الرؤية من خلالها.

تشبث العجوزان بالبوابة ودقا عليها علّها تختفي من أمامهما، لكن دون جدوى.

جلس العجوزان على الإسفلت واتكآ بظهريهما على البوابة الحديدية وشخصا بنظريهما إلى بيوت القرية.

نظرت الحاجة خضرة إلى عليتها من بعيد، ورأتها وهي تهوي تحت ضربات الجرافة التي أحضرها عزام، تاركة سحبا من الغبار.

أغمضت الحاجة خضرة عينيها وأغمض أبو رزق عينيه.

وفي عصر ذلك اليوم، شيّعت خضرة وشيّع أبو رزق إلى مثواهما الأخير.

وفي ذلك اليوم، انتصب أرود واقفا على قدميه ونظر إلى السماء!

هل يعود ربيع القرية من جديد؟

انتهت